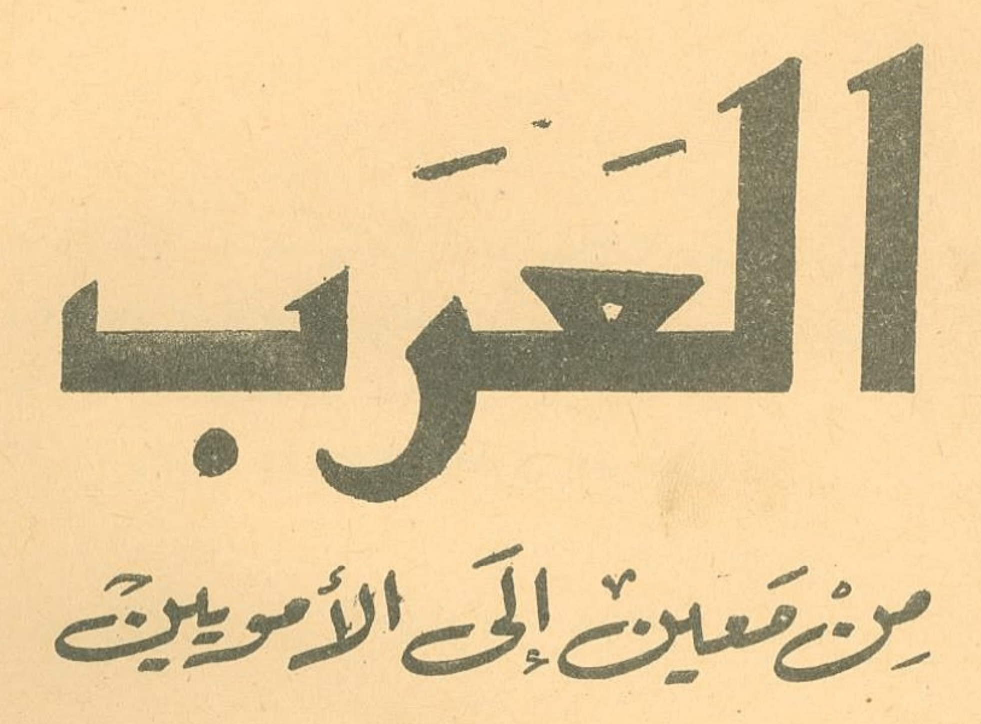
ضرار صالح ضرار



الطبعة الرابعة

★

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت
شارع سوريا تلفون ٢٣١٩٣٠

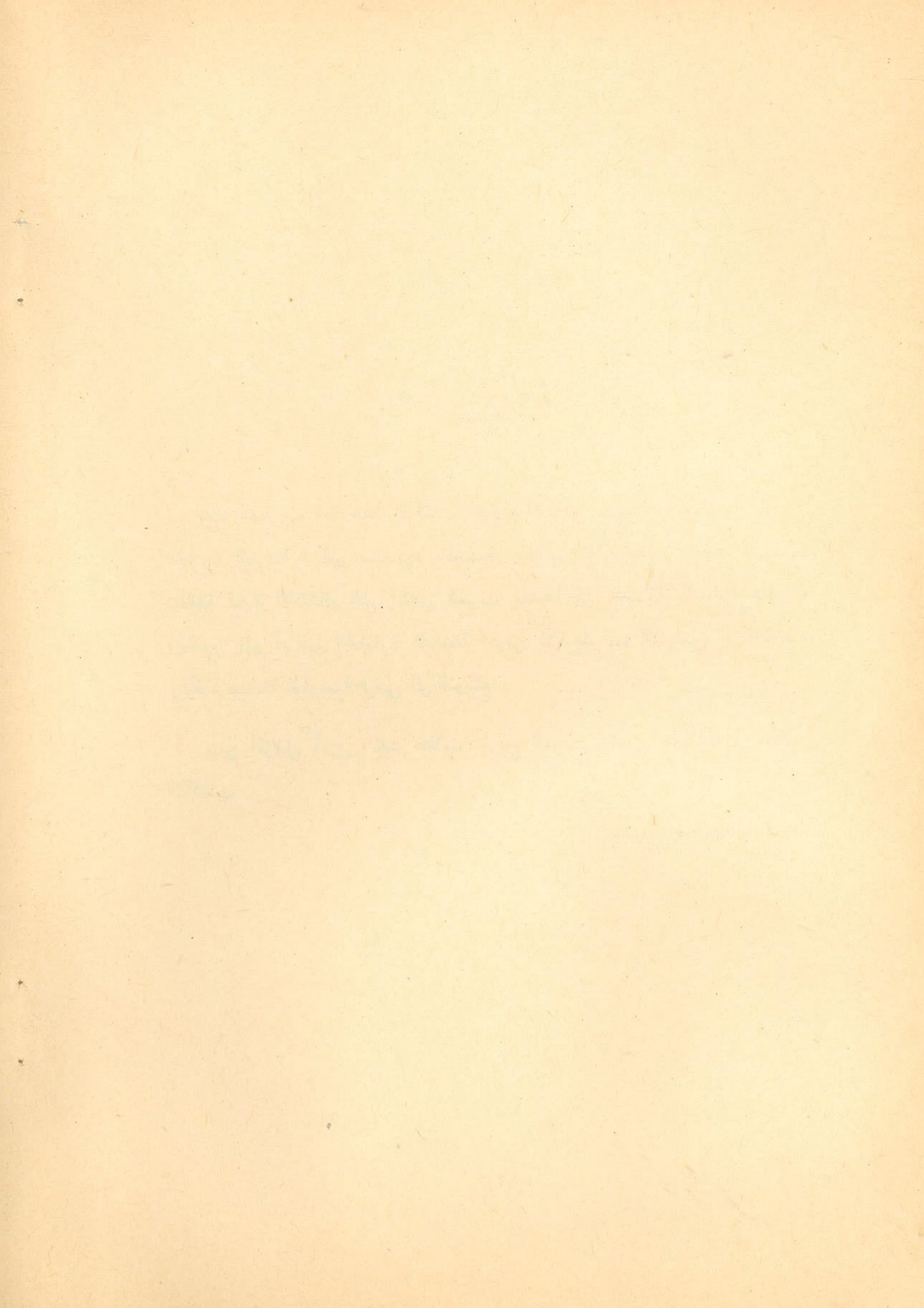
الطبعة الرابعة — ١٩٦٨

مقدمة

يجد القارىء أن هذا الكتاب محاولة ليعالج حقبـة طويلة من تاريخ الجزيرة العربية ، فهو يبتدىء بالمعينيين وينتهي بالأمويين ، وتعد هـذه الحقبة فترة الانتقال التي انتقل العرب بعدها من حيـاة البداوة العميقة الجذور الى أبواب الحضارة الباسقة ، ومن الاضطراب السياسي الى الاتحاد واتخاذ سياسة خارجية ترمي الى التوسع .

ومن المؤمل أن يجد طلاب تاريخ العرب متعـة وفائدة في سطور الكتاب .

ضرار صالح ضرار



مقدمة

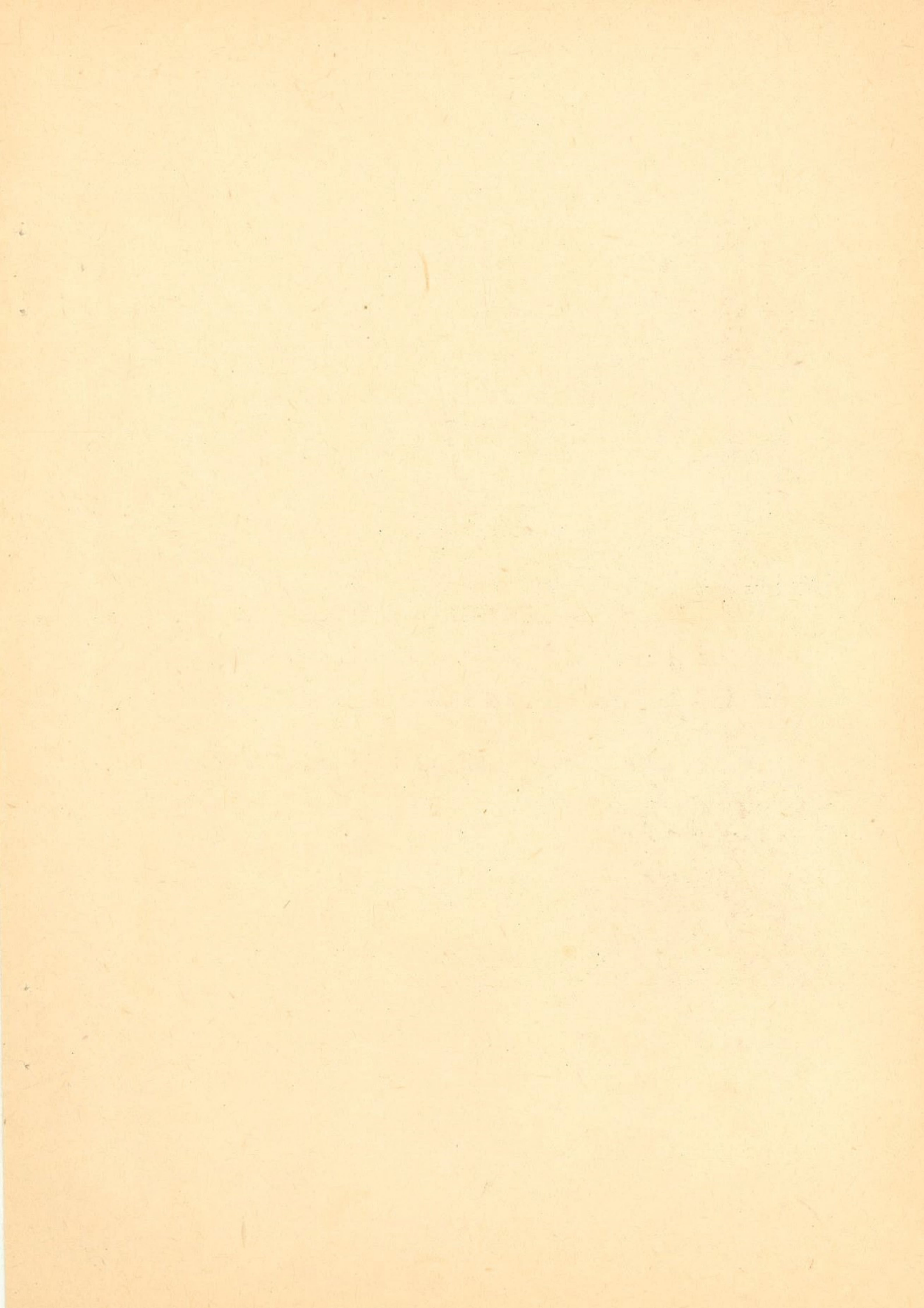
الطبعة الثانيـة

لما نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ظهر أن جيلا حديثـا من الذين يسعون وراء معرفــة الحقائق عن تاريخ العرب في تلك الحقبة ربما يريدون الآن أن يكون هذا الكتاب في متناول أيديهم أيضاً.

وتجاوباً مع تلك الرغبة فإني أتقدم بهذه الطبعة الثانية .

ضرار صالح ضرار

يوليو ١٩٦٣



١

العرب

أطلق العرب على موطنهم لفظ « الجزيرة العربية » ، وبالطبع فإن هذا اللفظ لا يتفق مع جغرافية البلاد ، اذ ان موطن العرب ليس بالجزيرة ولكنه شبه جزيرة . غير أن العرب رأوا أن نهري دجلة والفرات يقتربان من البحر الأبيض المتوسط في الشمال ولذلك فقد اطلقوا هذا اللفظ تجوزاً .

والجزيرة العربية هي أكبر شبه جزيرة في العالم ، ولاتساعها فقد اختلفت طبيعتها الجغرافية اختلافاً متبايناً ، وقسمها العرب أنفسهم إلى خمسة أقسام رئيسية هي :

١ – الحجاز ويشمل الجبال المحاذية للبحر الأحمر والمرتفعات ، وسميت بهذا اللفظ لأنها حجزت بين الأراضي الساحلية المنخفضة وبين بقية الأجزاء وخلال هذه الجبال نجد الوديان حيث انتشرت فيها المدن والقرى .

٢ – تهامة وهي الأراضي المنخفضة التي على ساحل البحر الأحمر ، وقد أدى انخفاضها إلى اشتداد درجة الحرارة فيها ، وعرضها يبلغ الثلاثين ميلاً .

٣ – أما نجد فهي الهضاب التي في قلب الجزيرة ، وهي صحراوية .

٤ – واليمن في الجنوب الغربي من الجزيرة ، وهي أخصب بقاع بلاد العرب حيث تحمل الرياح الموسمية إليها الأمطار .

٥ – والعروض تشمل بلاد اليمامة وعمان والبحرين .

ومن العسير أن يحدد أصل العرب وموطنهم الأصلي ، فالمؤرخون يرون أنهم ينتمون الى العنصر السامي نسبة الى سام بن نوح ، ويحاولون أن يعللوا ذلك بشتى الطرق كاللغة والخلق ، ثم يختلفون في أصل موطن الساميين ، فبعضهم يرى أنهم من سكان البحر الابيض المتوسط ، وجماعة ترى أنهم من سكان بابل إلى غيرهما من الآراء مما يدل على اضطراب في تقصي حقيقة موطن العرب الأصلي .

ويقسم مؤرخو العرب القبائل العربية إلى قسمين – العرب البائدة مثل ثمود وعاد وطسم وجديس والعمالقة وجرهم الأولى ، ويقولون بأن هذه القبائل اندثرت تماماً ولم يبق منها أحد ويقولون أيضاً بأن هؤلاء العرب كانت لهم دول وممالك انتشرت في الشام وامتدت إلى مصر ، ويعتقدون أنهم نزحوا الى بابل لما ازداد عدد السكان وسكنوا في الجزيرة العربية .

ثم ظهرت بعد ذلك القبائل العربية الباقية ، وهؤلاء انفسهم انقسموا

إلى قسمين : —

١ — عرب الشمال :

٢ — عرب الجنوب :

عرب الشمال

يعتقد العرب أن عرب الشمال ينتمون الى إسماعيل عليه السلام كما حدّثت بذلك التوراة ، ويذكر العرب ان اسماعيل قد سكن مكة ، وتزوج من قبيلة جرهم الثانية ، ثم ولد له اثنا عشر ولداً هم الذين تنتسب إليهم قبائل العرب الشمالية . ويطلق على هذه الفئة من ذرية اسماعيل « العرب المستعربة » وهم الذين ينتمي إليهم النبي (ص) وقد عرف الشمال بالشعب العدناني ، وانقسم هذا الشعب الى عك الذين سكنوا في جنوبي تهامة ولكنهم لم يتركوا تاريخاً ، ولم يشتهروا بشيء ، والقسم الآخر هو معد وهؤلاء انقسموا الى نزار وقنص ، ثم انقسمت نزار الى أقسام كثيرة هي قبائل أنمار ومضر وقضاعة وربيعة وإياد ، وكثر نسل مضر وربيعة واشتهر أمرهم أكثر من غيرهم من الشعب العدناني ، ومن مضر كانت القيسية الذين اشتهروا فيما بعد كمنافسين لعرب الجنوب .

عرب الجنوب

يرجع نسب عرب اليمن الى يعرب بن قحطان ويسمون بالعرب المتعربة وذلك للاعتقاد بأنهم أخذوا اللغة العربية من العرب البائدة أو العاربة كما تسمى أحياناً . وقد سكن هؤلاء في جنوب الجزيرة الغربي حيث كان العمالقة يقيمون مملكتهم فلم يختلطوا بهم بل قبعوا في البادية

يتوالدون حتى كثر عددهم وقلت مواردهم فهجموا على مملكة العمالقة وأفنوا دولتهم واستولوا عليها ، ثم أخذوا يؤسسون دولاً مختلفة بخلاف ما فعل إخوانهم عرب الشمال الذين استمروا فترة طويلة وهم عرب بادية . ومن أشهر فروع القحطانيين حمير وكهلان ، ومن كهلان كان الأزد وهم الذين تفرع منهم الأوس والخزرج الذين سكنوا المدينة ، ومنهم كذلك أبناء جفنة من ملوك الشام ، كما رحلت قبيلة لخم بن عدي إلى الحيرة من اليمن ، وهناك أسسوا أسرة المناذرة التي كانت تحكم في الحيرة ، وكان عمر بن عدي بن نصر أول من جعل الحيرة مقراً للخميين . ومن قبائلهم الشهيرة أيضاً قضاعة وكلب ، وكلتاهما نزلت في شمالي الجزيرة بين العراق والشام .



٢

الحياة السياسية

في الجزيرة قبل الاسلام

ممالك الجنوب : —

تعتبر اليمن من أخصب أجزاء الجزيرة العربية ، وقد ساعدت هذه الخصوبة على إيجاد حالة استقرار في مكان واحد بدلاً من التجول لمتابعة المراعي والأمواه ، فاستقرت القبائل القحطانية في اليمن وأخذوا يستفيدون من مياه الأمطار الكثيرة ويستخدمونها في الزراعة ؛ فنشأت عندهم حياة القرى فالمدن ، واضطروا إلى تسخير مياه الامطار وحجزها للتصرف فيها كما تقضي بذلك الحاجة إلى الري . وبنشوء الزراعة نشأت معها حكومة منتظمة لترعى مصالح السكان ، وتفض الخصومات التي قد تنشأ عند امتلاك الأراضي الزراعية . وهكذا عرف جنوب الجزيرة الحياة السياسية

الراقية قبل غيره من البقاع . وهناك ظهرت ممالك متعاقبة إلى عـــالم الوجود .

وكانت هذه الممالك وليدة نظم مختلفة قديمة تطورت بتقدم السنين إذ كان نظام الحكم في بادىء الأمر إقطاعياً فكان هناك عدة حكام يحكمون في « محافد » أو مناطق مختلفة ، وعلى كل محفد والٍ يسكن في قصر أشبه ما يكون بالقلعة ؛ وكانت هناك ألفاظ تطلق على هذه المناطق ، ويسمى الحاكم بصاحب تلك المنطقة .

وفي بعض الأحيان كان يمتد سلطان أحـــد هؤلاء الحكام إلى غيره فيحكم عـــدة محافد وعندها يصبح « قيلا » أو أميراً ويكون شأنه أهم وأخطر من الصواحب . واتسعت شقة الخلاف بـــين هؤلاء الحكام حتى استطاع بعضهم أن يؤسس مملكة كبيرة بعد إخضاع عـدد من المحافد . وكانت أولى تلـــك الممالك التي ظهرت في جنوب الجزيرة العربية هي مملكة معين .

مملكة معين

١٢٠٠ – ٦٥٠ ق.م

يعتقد أن أصل المعينيين من بابل فنزحوا إلى بـــلاد اليمن وهناك سكنوا في الجوف ، واتخذوا المنازل والقصور كما كانوا يفعلون في بابل . وكان المعينيون قـد عرفوا كثيراً من أحوال التجارة إذ كانت الزراعة والتجارة من أهم أعمالهم بالعراق . وقد حفزتهم التجارة على نشر الحساب والكتابة ووجدوا أن الحروف الفينيقية أكثر الحروف سهولة ولذلك

فإنهم استعملوها في كتاباتهم التجارية والتاريخية ، ثم تطورت تلك الحروف بمرور الزمان فاتخذها السبئيون ثم الأحباش والحميريون بعد أن طرأ عليها غير قليل من التغيير ، كما طرأ أيضاً على لغتهم فخرجت من طور البدائية إلى طور أكثر نمواً وارتقاء .

وكان لتجارة المعينيين أثر في توسيع رقعة البلاد وامتدادها حسبما تقتضي تجارتها . وكانت لهذه المملكة مستعمرات متعددة خارج اليمن فقد امتد نفوذهم إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط في جنوبه ، والى خليج العجم وبحر العرب . ونسبة إلى هذه المسافات البعيدة التي كان يقطعها التجار المعينيون فإنهم قد وجدوا أن من الخير أن يستعمروا بعض المرافىء في مختلف البحار ، ولم يكن هذا الاستعمار نتيجة حروبات ؛ ولكنه يبدو أنه كان نتيجة اتفاقيات تجارية بين المعينيين وبين الأمم الأخرى . وقد ساعد المعينيين على أسفارهم أنهم كانوا يسكنون مكاناً وسطاً بين الشرق والغرب ، فقد كانت الهند في شرقي بلادهم ، والبحر الأحمر يوصلهم إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط عندما كانت قناة السويس القديمة ما زالت مستعملة . واشتهرت في معين موانىء ومدن مختلفة منها عدن وظفار ومسقط وقانا ، فكانت السفن تزحم بعضها بعضاً في مياه هذه المرافىء .

ومن قديم الزمان كانت التجارة رائجة بين سواحل البحر الأبيض المتوسط وسواحل المحيط الهندي ، فقد كان قدماء المصريين منذ أقدم العصور يرسلون سفنهم إلى تلك الشواطىء لإحضار البخور والتوابل حيث كان البخور يستعمل في المعابد والتوابل في التحنيط . فلما ضعفت مصر احتكر المعينيون هذه التجارة واتصلوا اتصالاً أوثق بالمدنيات

المصرية والهندية والفارسية . وقد ظهر أن للمعينيين آثاراً في وادي القرى وفي الصفا وفي حوران .

أما طريقة الحكم في هذه الدولة فقـــد كانت ملكاً وراثياً ، وقد يحكم الابن مع والده في نفس الوقت . ولم تكن للملك هيبــة الهيـــة ، ولكنه ربمــا كان الملك رئيس الكهنــة في المملكة ، كما كان يستشير في كثير من الأحيان كبار رجال دولته خصوصاً المحـــافد المنتشرين في المملكة .

مملكة سبأ

٩٥٠ – ١١٥ ق ٠ م

لا يعرف على وجه التحقيق موطن السبئيين الأصلي ، ولكنهم كانوا من العنصر السامي ، وقــد نزلوا بالقرب من المعينيين ، وأسسوا مملكتهم هناك في نفس الوقت الذي ازدهرت فيه حضارة المعينيين في القرون الثلاثــة الأخيرة . ثم مــا لبث أن تغلب السبئيون على جيراتهم ، وضموا إليهم مملكة معين ، واستولوا على أكثر مستعمراتهم كما اقتبسوا الكثير من حضارتهم .

وقد تدرج السبئيون في الحكم من عهد المشايخ ، فالامارات ، فالملكية . وكان ملوكهم الأوائل بمثابــة السلطة الحاكمــة كما كانوا رؤساء الدين ، وبذلك نستطيع أن نقول إنهم كغيرهم من الامم مر عليهم طور الملوك الكهنة . وأخذ ملوكهم يوسعون رقعة بلادهم شيئاً فشيئاً حسب مقتضيات تجارتهم مع الدول الأخرى . ولم يكن هذا التوسع نتيجــة لحروبات بل

لاتفاقيات تجارية ، ونحن نعرف أن دولة سبأ كانت تدفع جزية سنوية للملك سرجون الثاني (٧٢١ – ٧٠٥ ق . م) ملك أشور . ولا شك أن تلك الجزية كانت نتيجة السماح لتجار سبأ بالاتجار مع أجزاء الامبراطورية الأشورية شمالي الجزيرة العربية .

ومملكة سبأ مرت على أطوار مختلفة حتى وصلت الى تكوينها الأخير فقد كانت في طورها الاول محكومة بمكرّب عرف باسم مكرّب سبأ ، واستمر هذا العصر ردحاً من الزمن ، وفيه لم تبلغ سبأ طور المملكة إذ لم يستطع أي مكرب من الذين تولوا حكمها أن يؤسس مملكة وراثية تخضع لأي نوع من النظام الدستوري . وكثيراً ما كانت تعم الفوضى ، وتتفكك البلاد قبل أن يظهر مكرب فيجمع شتاتها . وفي حوالي سنة ٨٥٠ ق.م. ظهر ملوك سبأ ، ومن أشهر ملوكها بلقيس التي عاشت في القرن التاسع قبل الميلاد معاصرة النبي سليمان . ومن الواضح أن مملكة سبأ حتى ذلك الحين لم تكن بالدولة الحربية القوية إذ أن النبي سليمان هددها بارسال جنود فخافت المملكة ورجالها واستسلمت لحكم سليمان . ومما هو جدير بالذكر أن سليمان كان يحكم فلسطين ، ولم تكن هذه بالمملكة القوية حربياً ، ومع ذلك فقد أخافت مملكة سبأ .

استمر العهد الملكي في سبأ حتى سنة ١١٥ ق.م. وعندما ظهر الحميريون استولوا على الملك وأسسوا الدولة الحميرية .

واعتمد أهل سبأ اعتماداً كلياً على الزراعة والتجارة ، ثم ما لبثوا أن أهملوا الزراعة ، واتخذوا التجارة أساساً لحياتهم الاقتصادية وكانوا كسابقيهم من المعينيين يبحرون بالتوابل والبخور واللآلىء بين بلاد الهند وفارس

وشواطىء شرقي افريقيا ، وبين البحر الأحمر عند مصر وفلسطين والدول الأخرى في شمال جزيرة العرب .

أما الزراعة فقد كان اعتمادهم عليها كبيراً أول الأمر لما تدره عليهم من غذاء ، ولذلك فقد أنشأوا السد المشهور بسد مأرب وحفروا الترع والقنوات واستخدموا المياه استخداماً حسناً في الزراعة . غير أن التجارة ألهتهم عن الزراعة فأهملوا السد وأمره ، فلم يصلحوه كما يجب وكان من أثر ذلك أن انهد السد وتفرق أهل سبأ في البلاد .

ويعتقد مؤرخو العرب أن انهدام السد هو السبب الوحيد في تشتيت السبئيين وتفرقهم الى شمالي جزيرة العرب وقد كان من آثار فتح الإسكندر للامبراطورية الفارسية أن عرف اليونانيين بتلك البلاد وشجعهم أثناء فتوحاته على الدخول الى جميع أجزاء الامبراطورية ، فأصبح الاتصال بين الشرق والغرب بعد ذلك سهلا ، ونشطت التجارة في شمالي الجزيرة العربية عبر الهلال الخصيب ، وكان لنشاط التجارة في تلك البقاع أثره على حركة التجارة في جنوبي الجزيرة الذي لم يعد الجسر الوحيد للهند وشرقي آسيا. ومنذ ذلك الحين تدهورت حال التجارة السبئية شيئاً فشيئاً حتى أصبحت كحال الزراعة ، واضطر عدد كبير من السكان الى النزوح الى شمال الجزيرة . واضمحلت تجارة السبئيين براً وبحراً ، وتدهورت الحالة الاقتصادية في عاصمتهم مأرب حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

مملكة الحميريين

١١٥ ق. م – ٥٢٥ م

ورث الحميريون بلاد سبأ ومعين بعد تدهور سبأ ، واتخذوا مدينة

ظفار قصبة لبلادهم والحميريون من أصل سامي ورثوا لغة من سبقهم في بلاد اليمن ، فهم يعتبرون جماعة من السبئيين كانوا يعيشون كأقيال في مناطق مختلفة من بلاد اليمن ، وزاد اتحادهم شيئاً فشيئاً حتى عظم شأنهم واستولوا على ملك سبأ وأطلق على ملكهم « ملك سبأ وذو ريدان » . ويبدو أن ريدان كانت مقر ملكهم الأول قبل توسعهم ، ثم ما لبثوا أن ضموا حضرموت فأصبح ملكهم يدعى ملك سبأ وريدان وحضرموت .

وقد عاصرت دولة الحميريين ثلاث ممالك كبيرة هي الفرس والرومان والحبشة وكانت كل هذه الدول تحاول أن تسيطر على طرق التجارة بين الهند والبحر الأبيض المتوسط براً وبحراً . واستطاع الحميريون أن يسيطروا على الطرق الجنوبية حتى نهاية القرن الاول للمسيح ، وساعدهم على ذلك نشاطهم التجاري ، وظهور الامبراطورية الرومانية التي سلخت البحر الابيض المتوسط من مدنيات ما بين النهرين وفارس .

لا يعرف عن مملكة حمير الكثير ، كما أن الجزء الاول من تاريخها وصل إلينا مشوهاً تصل فيه المبالغات الى درجة السذاجة أحياناً . ولذلك فإن من الصعوبة بمكان أن يحدد لها تاريخ وحوادث. غير أن تاريخ هذه المملكة أصبح موثوقاً به قبيل استيلاء الأحباش على اليمن ، وكذلك في العصر الحبشي .

في القرن السادس للميلاد استعادت الامبراطورية الرومانية قوتها تحت الأباطرة جستين ومن بعده جستنيان (٥٢٨ - ٥٥٦) وأخذ التجار المصريون والرومانيون المسيحيون يبحرون من مصر في البحر الأحمر حتى يصلوا الى الهند . وبرهنت المراكب الرومانية على أنها من أصلح وسائل السفر والنقل في العالم حتى شعر الحميريون بخطورة المنافسة الرومانية ، واستطاع الرومان

الوصول الى سواحل وشرق افريقيا . وكان العرب هم الذين احتكروا تجارة البهارات والحرير والعطور الشرقية واللآلىء غير أنهم وجدوا منافساً خطيراً في الرومانيين .

وبينما كان الرومان يعتنقون المسيحية ، وكذلك الأحباش الذين كونوا دولة أكسوم ، كان بعض الحميريين يعتنق اليهودية ، والآخر يعتنق الوثنية ثم ظهرت في نجران بوادر التبشير المسيحي ، واخذ تعداد المسيحيين فيها يزداد ، وخشي ذو نؤاس ملك حمير نفوذ المسيحيين الأحباش على النجرانيين وتخوف من تحالف نجران المسيحية باليمن وأكسوم على بلاده ودينه للاستيلاء على اليمن ، والسيطرة على التجارة ، فأسرع بإحراق أهل نجران وتعذيبهم وبذلك تخلص منهم في سنة ٥٣٤ م .

غير أن هذه الحادثة كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير إذ اتخذها الأكسوميون ذريعة للهجوم على اليمن إذ سبق أن هاجم الحميريون المراكب المصرية الرومانية التي ذهبت إلى الهند وسيلان ؛ واعتدوا عليها ، ورأى الأكسوميون أن ينظفوا البحار من القرصنة الحميرية للتجارة الحرة بين العالم الشرقي والعالم المسيحي . وكان الأحباش قد ارتبطوا بمحالفة مع امبراطور القسطنطينية ، وطلبوا منه أن يرسل إليهم مبشراً ليعلمهم المسيحية ، فأرسل إليهم الامبراطور القس يوحنا (جون) الذي أنشأ كنيسة القديس يوحنا ، ثم سافر بسفراء من الحبشة إلى القسطنطينية ؛ وعاد حيث استوطن الحبشة . وكان لهذا الحلف أثره في الهجوم على دولة الحميريين .

وليست هذه أول محاولة للبيزنطيين للاستيلاء على جنوب الجزيرة ، فقد سبق ان قام الامبراطور أنستاسيوس ثم من بعده الامبراطور جستين

بمحاولات لعقد محالفات مع الحميريين للهجوم على الفارسيين من الجنوب والجنوب الشرقي للجزيرة العربية حتى يضطر الفرس للقتال في جبهتين . ولكن خشي الحميريون أن يختل التوازن الدولي فترجح كفة المسيحيين في هذه المعركة إذا انهزم الفرس ، وتسقط حمير أيضاً فريسة للأكسوميين والروم ، ولذلك فقد رفض الحميريون كل تحالف مع الروم من شأنه أن يقوض التوازن الدولي .

وظن الأحباش أن طريق التجارة صار مفتوحاً بين الشرق والغرب بعد أن هزموا الحميريين فعادوا بجنودهم إلى الحبشة ، ولكن سرعان ما جد الحميريون في احتكار التجارة والطرق ، وعاودوا قرصنتهم من جديد حتى أصبح لزاماً على الأكسوميين أن يعاودوا قتال الحميريين إذ تأثرت حالتهم التجارية من جراء فعل الحميريين . فقام أليسباس ملك أكسوم بحملة عسكرية واستطاع أن يتغلب على العرب ثم جعل عليهم حاكما من الأحباش حتى يتم إخضاعهم وكان ذلك الحاكم هو أسيافيوس . وكان على أسيافيوس أن يجبر الحميريين على اعتناق المسيحية ، وكان الدافع على ذلك هو أن يجعل الحميريين خاضعين دينياً وروحياً إلى كنيسة القسطنطينية ، فيسهل انضمامهم تحت لواء المسيحية كما كانت النزعة الدينية تشجع على نشر ذلك الدين ، ولو نجح أسيافيوس في هذه المهمة لجعل الحميريين من أتباع قيصر الروم سياسياً ودينياً.

رأى أسيافيوس أن يستعين بالأسقف جريجنتن الذي لجأ إلى مناقشة أحد أحبار اليهود واسمه هربان عن صحة العقيدتين ، ويدعي جريجنتن أنه أثناء المناقشة أصيب كل الحاضرين من اليهود بالعمى ، فلما دعا الله أن يرد إليهم أبصارهم ، استجاب الله لدعائه ، ثم ما لبث أن اعتنق النصرانية سائر اليهود في اليمن .

ثم مـا لبث الحميريون أن ملوا الحكم الأجنبي فثاروا على الوالي الحبشي وطردوه ، وحاول ملك أكسوم أن يخضعهم مرة ثانية غير أن جنده تمردوا، فقنع بإتمام معاهدة صلح مع الحميريين . ولكن مـا زال النفوذ الحبشي قوياً فيها إذ كان التبشير بالدين المسيحي قائماً على قدم وساق ، وأراد الحميريون أن يستعيدوا حريتهم فالتفوا حول كبيرهم سيف بن ذي يزن الذي رأى أن يستنجد بحلفاء حمير الأقدمين وهم الفرس .

اتصل سيف بن ذي يزن بكسرى أنو شروان ملـك الفرس (٥٧٥م) ، ووافق كسرى على إرسال جيش للقضاء على النفوذ الحبشي المسيحي في جنوب الجزيرة ولتأمين جبهته الجنوبية والسيطرة على الملاحة وبذلـك يحارب تجارة الروم التي أصبحت متزايدة منذ استيلاء الأحباش على حمـير . ونجح كسرى في التغلب على الأحباش ، وصار الملك في حمير لسيف إلا أنـه وقع فريسة حادث اغتيال إذ اغتاله رجل من الأحباش ، ومنذ ذلـك الحين (٥٧٥ م) سقطت مملكة حمير في أيدي الفرس الذين عينوا عليها الحكام ، وكان آخرهم باذان الذي اعتنق الدين الإسلامي سنة ٦٢٨ م ، وفي ذلـك التاريخ عادت اليمن مرة ثانية الى أيـدي العرب ، وانتهى عهد النفوذ الخارجي في جنوبي جزيرة العرب .

٣

ممالك الشمال

بنو غسان :

من المعتقد أن بني غسان من القبائل اليمنيـة التي كانت تسكن في جنوبي الجزيرة ، ثم رحلت إلى بلاد تهـامة حيث استقرت فترة من الزمن . وبعـد ذلك واصلت رحلتها حتى بلغت بلاد الشام وهنـــاك ألقت عصا التسيار في القرن الأول قبل الميلاد . واتخذوا بصرى عاصمة لهم ، وبنوا فيها القصور ، وقضوا فيها حياة استقرار ، واختلطوا بالعرب من قبائل قضاعة والضجاعم ، وغلبوهم على أمرهم ، وأخذوا يستعملون اللغة الآرامية التي كانت اللغة الغالبة في الشام دون أن ينسوا اللغة العربية أو يهجروها . وكان الغساسنة في بادىء الأمر أحلاف خلفاء الإسكندر في الشام . وكانوا يصدون غـارات الأعراب الذين يقدمون من البادية ، فصاروا بمثابة الدرع الواقية من هجمات الصحراء .

واستولى الرومان بعد ذلك على سوريا وفلسطين ، واستمر الغساسنة خاضعين لهم كما كانوا يخضعون لليونان من قبل حتى كان القرن الثالث الميلادي .

في ذلك التاريخ توحدت بلاد فارس والعراق بعد أن كان يحكمها عدة ملوك هم ملوك الطوائف ممن خلفهم الإسكندر على امبراطورية فارس الشاسعة . وتم هذا التوحيد في سنة ٢٢٦ م على يد أردشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية في فارس . وهنا ظهرت أهمية أخرى للغساسنة إذ أصبحوا أيضاً الخط الأمامي لصد هجوم الفرس على الرومان حين حاول الفرس الاستيلاء على طرق التجارة حتى شرقي البحر الأبيض المتوسط .

وهكذا أصبح الغساسنة في موقف حرج ، هذا زيادة على ما كانوا يقومون به من محاولات لتأمين طرق التجارة بين الشام واليمن ، وبين الشام والعراق براً .

لم يتأثر الغساسنة بلغة أهل الشام فحسب، بل إنهم مع توالي الأيام اعتنقوا الدين المسيحي ، وبذلك أصبح يربطهم بالرومان أكثر من رباط واحد . ويذكر مؤرخو العرب أن جفنة هو والد الغساسنة ومؤسس دولتهم ، إلا أن تاريخه مشوه ممسوخ ، ولكن المؤكد أن أول أمراء أبناء جفنة ممن اعترف به الرومان أميراً على الغساسنة هو جبلة الذي أخمد ثورة في سنة ٤٩٧ م قام بها العرب ضد الروم . ثم خلفه ابنه الحارث بن جبلة الرابع ٥٢٩ م الذي عينه « فلارخ » أميراً على بلاده من قبل امبراطور الروم جستنيان بعد أن تمكن الحارث من التغلب على ملوك الحيرة الذين كانوا يجدون العون من الفرس. وكان ملك الغساسنة يجد عوناً مالياً من امبراطور الرومان جستينيان نظير إمارته على المناطق العربية في الشام . إلا أن هرقل إمبراطور الروم اضطر

الى إلغاء هذه الإعانه المالية فيما بعد نظراً لما كانت تعانيه الامبراطورية من إفلاس بسبب الحروبات مع فارس ومع قبائل الجرمان في أوروبا .

واضمحلت قوة الغساسنة بعد ذلك ، وكثر تدخل الرومان في شؤونهم حتى فقدت كل ما يميزها كدولة ذات سيادة فلما جاء المسلمون وجدوا أنها جزء من إمبراطورية الروم . وسرعان ما فتحوها مع ما فتحوا من بلاد الشام .

مملكة الحيرة

نشأت مملكة الحيرة معاصرة لمملكة غسان ، وكان موقعها في أطراف العراق ، واتخذت الحيرة عاصمة لملوكها . وكان سكان الحيرة عرباً نزحوا من جنوبي الجزيرة أيضاً كما فعل الغساسنة ثم استوطنوا مشارف العراق ، وهناك اتصلوا بالفرس اتصالاً ضعيفاً أول الأمر حتى إذا تم توحيد البلاد الفارسية في سنة ٢٢٦ م تحت الأسرة الساسانية وقع ملوك الحيرة تحت سيطرة الفرس الذين استغلوا هذه المملكة كما استغل الرومان الغساسنة .

وكان أول زعيم على الحيرة من بني تنوخ هو جذيمة الأبرش حتى إذا مات تولى بعده ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر اللخمي ، ومنذ ذلك الحين سميت هذه المملكة بمملكة اللخميين ، كما سميت مملكة المناذرة .

وكانت هذه المملكة حائطاً قوياً يحول دون بلوغ أعراب الصحراء مدن العراق ، فقد كانوا يخضعون القبائل العربية المجاورة لهم ، وبالتالي يأمن الفرس شر المباغتات ، يضاف إلى ذلك أنهم خطوط الدفاع الأمامية أمام هجمات الرومان ومن ناصرهم من غساسنة .

وبسبب هذا الموقف الغريب كثرت الحروب بين الغساسنة والمناذرة ، كل يريد أن يخضع الآخر إذ كانت المملكتان متتاخمتين ، واشتدت هذه الحروب في عهد الحارث الرابع ملك غسان والمنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء سنة ٥١٤ — سنة ٥٦٣ م . وانتهت هذه الحروب بهزيمة المناذرة بعد أن كانت لهم اليد العليا في بداية المواقع ، وقتل المنذر ، غير أن هذه الحروب أضعفت من شوكة المملكتين ، وجعلتهما أكثر التزاماً بالدولتين الكبيرتين اللتين كانتا تمدانهما بالمال والعتاد . وكما سهل تدخل الرومان في شئون الغساسنة كذلك صار الحال بين الفرس والمناذرة .

لما آل الملك إلى قباذ كسرى الفرس سنة ٥٦٢ م ظهر في أيامه مذهب إباحي لصاحبه مزدك الذي كان يدعو إلى الإباحية في كل شيء ، والاشتراك في الممتلكات . ورأى قباذ أنه في حاجة إلى كثير من الأموال التي استنفدتها الحروب في الروم . وكان يرى أن نبلاء الفرس وتجارها قد أثروا ثراء عظيماً ، وأنهم هم الذين يستطيعون أن يعطوه ما يريد ، ولذلك فقد آثر أن يعتنق مذهب مزدك حتى يقاسم ذوي الثراء اموالهم ، وأخذ يضطهد كل من لم يؤمن بذلك المذهب في فارس وفي الحيرة فطرد ملك الحيرة ، وولى عليها الحارث الكندي الذي كان ينافس المناذرة في السيطرة على تخوم العراق . ولكن لما مات قباذ تولى الدولة كسرى أنو شروان الذي ألغى المذهب المزدكي ، وقتل صاحبه ، وأعاد المناذرة إلى ملكهم .

وضعف شأن الحيرة ضعفاً كبيراً في أيام عمرو بن هند ملكها سنة ٥٦٣ إلى سنة ٥٧٨ م . إذ اغتاله عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة المشهورة مما يدل على أن الحالة في الحيرة أصبحت أضعف من أن تكون ذات أثر في الجزيرة العربية .

وكانت الدولتان العربيتان تتسابقان في تقريب مختلف القبائل العربية إليهما ، ويشجعها ما تلقاه من سلب ومغنم إن هي ظفرت في حربها ؛ وانضم عدد من هذه القبائل المتاخمة إلى دولة المناذرة ، إذ كان العرب يرون أن دولة الفرس أقوى من دولة الروم التي لم تسترجع قواها إلا في أيام هرقل، ولذلك كانوا يداً قوية على الغساسنة ، وأخذوا يثيرون الغارات مع اللخميين لإضعاف الغساسنة ودولة الروم .

وقد ساعدت هذه المحالفات اللخميين على توسيع رقعة مملكتهم حقبة من الدهر حتى انهارت أمام ضربات خالد بن الوليد .

وفي الحيرة انتشر الدين المسيحي بفرعيه ، النساطرة وكانوا يبشرون بنشاط غير متوقف ، واليعاقبة جدوا واجتهدوا ، ويرجع ظهور الدين المسيحي في الحيرة إلى سنة ٤١٠ م حيث كان هناك أسقف من قبل كنيسة القسطنطينية ، ولما ظهر النساطرة واليعاقبة في القرن السادس ازداد التبشير حدة ، وكانت للنساطرة اليد الطولى في نشر المسيحية . وحتى أواسط القرن السادس لم يعتنق ملوك الحيرة المسيحية بل كانوا على وثنيتهم يقدمون ضحايا بشرية إلى العزى حتى اعتنق المنذر بن امرى القيس بن ماء السماء المسيحية فأخذت تسري بعد ذلك في الأسرة المالكة .

وهكذا نرى أن اطراف الجزيرة في الجنوب الغربي ، وفي الشمال الشرقي والغربي كانت ميداناً فسيحاً للأطماع الأجنبية . فالروم يريدون السيطرة على الطرق التجارية براً وبحراً إلى الهند وسيلان . والفرس يريدون أن يفرضوا سلطانهم ، ويحتكروا التجارة غرباً حتى البحر الأبيض المتوسط ، والأحباش يريدون مساعدة اخوانهم في الدين وهم الرومانيون حتى يسيطروا على اليمن

ويحتلوا مكانة الحميريين التجارية ، ورأينـــا كذلك الضعف الذي طغى على مملكتي الحيرة والغساسنة مما جعلها لقمتين سائغتين للنفوذ الفارسي والروماني بالتوالي حتى وجد العرب المسلمون الفرصة سانحة لابتلاع كل هذه الأجزاء في مدى قصير .

٤

الحجاز

تمتع الحجاز وأواسط الجزيرة العربيـة بالاستقلال التام طيلة القرون التي تدخل فيها الأجانب في شؤون أطراف الجزيرة العربية ، وحاول الاسكندر أن يفتح تلك البلاد ولكنه مات قبل أن ينفذ مشروعه ، وفيما عدا ذلك لم يستطع أي نفوذ أجنبي ان يتوغل في البلاد، وكانت هذه الأجزاء من الجزيرة أقلها خيراً ، وأكثرها جدباً ، ولكنها كانت تعج بالقبائل المتفرقة في انحائها. وكان اعتماد هذه القبائل الاقتصادي في إبلهم التي ترعى في المراعي القليـلة في الوديان ، وتشرب من العيون المنتشرة على قلة في الجزيرة . وإزاء هذا الضيق الاقتصادي كانت سياسة العرب العامة هي بقـاء الأصلح ، ولذلك فقد كانوا يتفانون في سبيل احتكار المراعي والغدران .

أبت طبيعة البلاد العربية إلا أن تبقي على القبائل وقتاً طويلا بمـا لديهم من كيان سياسي خاص ، فالعرب كانوا يعيشون كقبائل لكل واحدة منهـا

استقلال سياسي تام لا يخضع لأي نظام خارجي ، فالقبيلة هي الأمة ، وزعيم القبيلة هو رأس الدولة وملكها يقود الأفراد في القتال ، ويرأس الاجتماعات القبلية للتشاور في أمرها . ومن هنا كان العربي لا يألف الخضوع لأي قانون بل يهتم بالنزعة الفردية ؛ ولا يرضى بأن تكون حريته محدودة بأي قانون ، ويرى أن المصلحة الخاصة أهم من العامة .

ولما كان العرب في داخل الجزيرة بعيدين عن النفوذ الأجنبي والتدخل فإنهم لم يكافحوا ضد أي مستعمر ، وكان لغياب عدو مشترك لهم أكبر سبب في عدم توحيدهم ، فانقلبوا على بعضهم بعضاً ينهبون ويسلبون ويقتلون .

وقامت حروب كثيرة بين القبائل المختلفة ، ومن أشهر تلك الحروب حرب البسوس التي قال مؤرخو العرب إنها دامت أربعين عاماً ، وكانت هذه الحرب بين قبيلة بكر بن وائل وتغلب بن وائل وهما أبناء عمومة . وكان ملك القبيلتين كليب بن ربيعة يحاول أن يبسط نفوذه على كل المراعي المحيطة بديار القبيلتين ، فلم يقبل ذلك صهره جساس ؛ ونشبت الفتنة حين خرجت ناقة ترعى لضيف البسوس خالة جساس ، ورتعت الناقة مع ابل كليب ، فأغضبه ذلك واعتبره تحدياً، فأنذر جساساً ثم ضرب الناقة في ضرعها بسهم، فاستاءت البسوس وصاحت « واذلاه » ، فما كان من جساس إلا أن خرج يطلب كليباً ، وطعنه وقتله ، فنشبت الحرب بين الحيين طوال الأربعين سنة.

وهناك حرب أخرى يقال إنها دامت أربعين سنة أيضاً بين عبس وذبيان ، وكان سبب القتال رهاناً بين رؤساء الحيين على فرسين فتلاحيا فترة من الزمن كل يدّعي بأن فرسه السابق ، وانتهى التلاحي بمعارك دامية بين الفريقين .

من هنا نرى أن العربي كان يجعل لإبله أهمية عظمى لا تعادلها إلا أهمية المراعي والمياه . ففي هذه الاشياء يختلف العرب ويقتل بعضهم بعضاً ولم يكن أحدهم يرضى لأن يخضع لقرارات الملك طالما ان ذلك القرار يعطي الملك نصيباً أوفر من غيره في المرعى أو المغنم ، وذلك لأن العربي يعتز باستقلاله الفردي ، ولا يريد به بديلاً ، ويؤمن بالمساواة بين الطبقات .

لكن العرب على شغفهم بنزعتهم الاستقلالية قبلوا زعامة قريش عن طيب خاطر . فقريش اكتسبت هذه المكانة لأنها كانت تجاور البيت الحرام وهي التي تعرف الكثير عن ديانة العرب الوثنية لأنها سكنت مكة . ومن المعتقد أن أصل مكة بابلي أو أشوري اذ أن هذه الكلمة في لغة بابل تعني « البيت » ، ولعلها سميت كذلك لبناء بيوت فيها بخلاف بادية الجزيرة . ومكة تختلف عن غيرها من مدن الجزيرة في طريقة بنائها إذ استعملت الحجارة في بناء البيوت. ولعل العمالقة من النازحين من العراق كانوا أول من أسس مكة ، وسكن فيها ، ثم جاءت بعدهم جُرهم وهم من القحطانيين الذين نزحوا من اليمن . وجاء اسماعيل من بعدهم ، وأصهر في جرهم ولقي أبناؤه احتراماً خاصاً لأن والده إبراهيم كان قد بنى البيت الحرام ، وعرف نسله بالعدنانيين ، ولم تكن لهم سلطة ظاهرة على سكان مكة بالرغم من تقدير الناس لهم لمكانتهم الدينية . وما زال الحال كذلك حتى قدمت جماعة من أزد اليمن برئاسة حارثة بن عمر الملقب بخزاعة ، فحارب جرهماً وهزمها ، واستولى على سيادة مكة دون غيره . واستمرت خزاعة تحكم مكة فترة من الوقت تكاثر فيها العدنانيون وقوي مركزهم اذ انتشروا في الجزيرة : فسكنوا نجداً والعراق والبحرين ولم يبق في مكة إلا أولاد فهد بن مالك الأب الخامس للنبي (ص) الذي اخذ يضايق الخزاعيين حتى نجح في ان يستولي على كل السلطة من أيديهم

ثم أخذ قصي أمر الكعبة من سدنتها بعد ذلك وجمع القرشيون السيادة الدينية والسياسية بمكة .

كان لانتزاع قريش السلطة من خزاعة أثرها في تغيير مركز قريش في الجزيرة ، فقد أصبحت هذه الفئة المركز الديني للوثنية العربية يعرفون عن دين العرب ما يجعل العربي يرجع إليهم في كل شدة ، ولا ينسى فضلهم في الرخاء . وكان موسم الحج حيث يتوافد العرب لقضاء فريضة دينية اكبر دليل على مكانة البيت الحرام وسدنته في نفوس العرب . ولئن عجزت قريش عن فرض سيادتها السياسية على الجزيرة وقبائلها فإنها نجحت في أن تجمع اكثر سكان الجزيرة تحت دين وثني واحد . وقبل كل هؤلاء أن يجعلوا من البيت الذي بناه ابراهيم مركزاً دينياً مقدساً يلتفون حوله مرة كل عام .

ورأى هذا الدين الوثني أن يعطي الناس مجالاً لإقامة هذا الفرض في كل عام ؛ فحرموا القتال فيه ، وجعلوا شهراً حراماً كما زادوا ثلاثاً أخر . وكانوا يجتمعون في مكة للحج ، فاذا بهم يجدون أمناً وسلماً ، فأخذوا يتجرون بعضهم مع بعض — يبيعون ويشترون — ونشطت تجارتهم عاماً بعد عام ، فأصبحت مكة سوقاً تجارية هامة في الجزيرة يقصد اليها كل عربي له تجارة ، أو له رغبة دينية . وكان هؤلاء الحجاج يجيئون من كل اطراف الجزيرة فمن اطراف الشام حيث السلع الرومية والمصرية ؛ ومن جوانب العراق حيث البضائع الفارسية والهندية والصينية ، ومن اليمن حيث الحاصلات الافريقية والهندية . واختلط العرب في صعيد واحد وعمل واحد هو التجارة في الشهر الحرام ، وبذلك نالت مكة مركزاً مهماً . وتطور ذلك حتى أصبح القرشيون كبار السماسرة في الجزيرة . ولم يلبثوا ان احتكروا طرق القوافل بين الشام واليمن ، وبين المشرق والمغرب . وساعدهم على ذلك الحروب

المتواصلة بين الفرس والروم طوال القرن السادس الميلادي ، وبين الأحباش والحميريين والفارسيين في جنوب الجزيرة وقطعت الحروب الرومية الفارسية طرق القوافل على نهري دجلة والفرات عبر الشام الى البحر الابيض المتوسط. وهددت القرصنة الحميرية المراكب المصرية والرومية التي تسير في البحر الأحمر الى شرق افريقيا والهند وسيلان ؛ ثم منع الفرس فتح هذا الطريق التجاري البحري لغيرهم من الدول فكان لا بد من ظهور جماعة تسير بالقوافل المحملة بالبضائع بين الشرق والغرب . وكانت قريش في هذا الوقت قد امتد سلطانها الديني في كل الجزيرة تقريباً ، فنقلوا البضائع بين العالم الشرقي والغربي وجعلوا من مكة مركزاً هاماً للتخزين ، فكانوا يحملون البضائع الشامية في الصيف ويخزنونها في مكة حتى اذا جاء الشتاء نقلوها الى اليمن وأحضروا ما في اليمن من سلع ليذهبوا بها للشام في الصيف : ومن ثم كانت رحلة الشتاء والصيف .

وكان على قريش ان تحمي هذه القوافل وهي تسير في الجزيرة فلجأت الى طرق تجارية لتجنيد الحراس ؛ واتخذت جيش الأحابيش ليدافع عن مكة وما فيها من ثراء إن لجأ اعراب البادية الى مهاجمتها ، كما استعمل هؤلاء الجند ايضاً لحراسة القوافل ، فكانوا اول قوم في داخل الجزيرة يستعملون المرتزقة في الدفاع عن ممتلكاتهم فقد نجحت هذه الوسيلة اذ لم يعتد عليهم أعراب البادية طيلة اشتغالهم بالتجارة .

أصبحت مكة في القرن السادس الميلادي من اكبر الاسواق التجارية العالمية بفضل ما كان العرب يلقون من أمن وسلم في الاشهر الحرم ، وكانت هذه الاسواق التي تقام في غير مكة كذي المجاز ، وعكاظ ، وبدر ذات أثر عظيم في التراث الأدبي الذي خلفه عرب الجاهلية . في هذه الأسواق كان الشعراء يلقون قصائدهم ، والخطباء نثرهم ، والكهان مواعظهم ، والنقاد

آراءهم حتى وصل الينا ذلك التراث العربي القديم ، وكانت روائع القصائد تعلق في الكعبة ، وعرفت بالمعلقات .

هكذا كانت قريش تؤمن بالسلم وحاجة البلاد العربية الى أمن داخلي حتى تروج تجارتها ، ويغنى تجارها ؛ ويزداد ثراء أفرادها . وكانت تحاول ان تبسط نفوذها السياسي كما بسطت نفوذها الديني والادبي ، فعمدت الى عقد محالفات مع عدة قبائل ممن جاورتها حتى تزداد قوتها ، غير أنها لم تبلغ بعد الطور الذي يجعلها تؤلف دولة موحدة في كل البلاد حتى يعم الأمن والسلام .

بالرغم من أن القرشيين استولوا على السلطة من خزاعة إلا أنهم لم يجعلوها مركزة الدعائم مبنية على نظام الحكومات المعروفة ، فلم يكن لهم رئيس نافذ السلطة وجعلوا لهم دار الندوة يجتمع فيها أشياخهم وينظرون في أمورهم . ولكن لم تكن دار الندوة بأكثر من مجلس استشاري لاعضائه الحق في قبول مقترحاته أو رفضها ، فهي جمهورية بغير رئيس ، وهيئة بغير سلطة تنفيذية . ومن هنا نتج الضعف الذي لم يجعلها تتخذ خطوات حاسمة لإخضاع الجزيرة لسلطان سياسي موحد ؛ إلا أنها عبدت الطريق بما لها من زعامة دينية ، ومكانة تجارية .

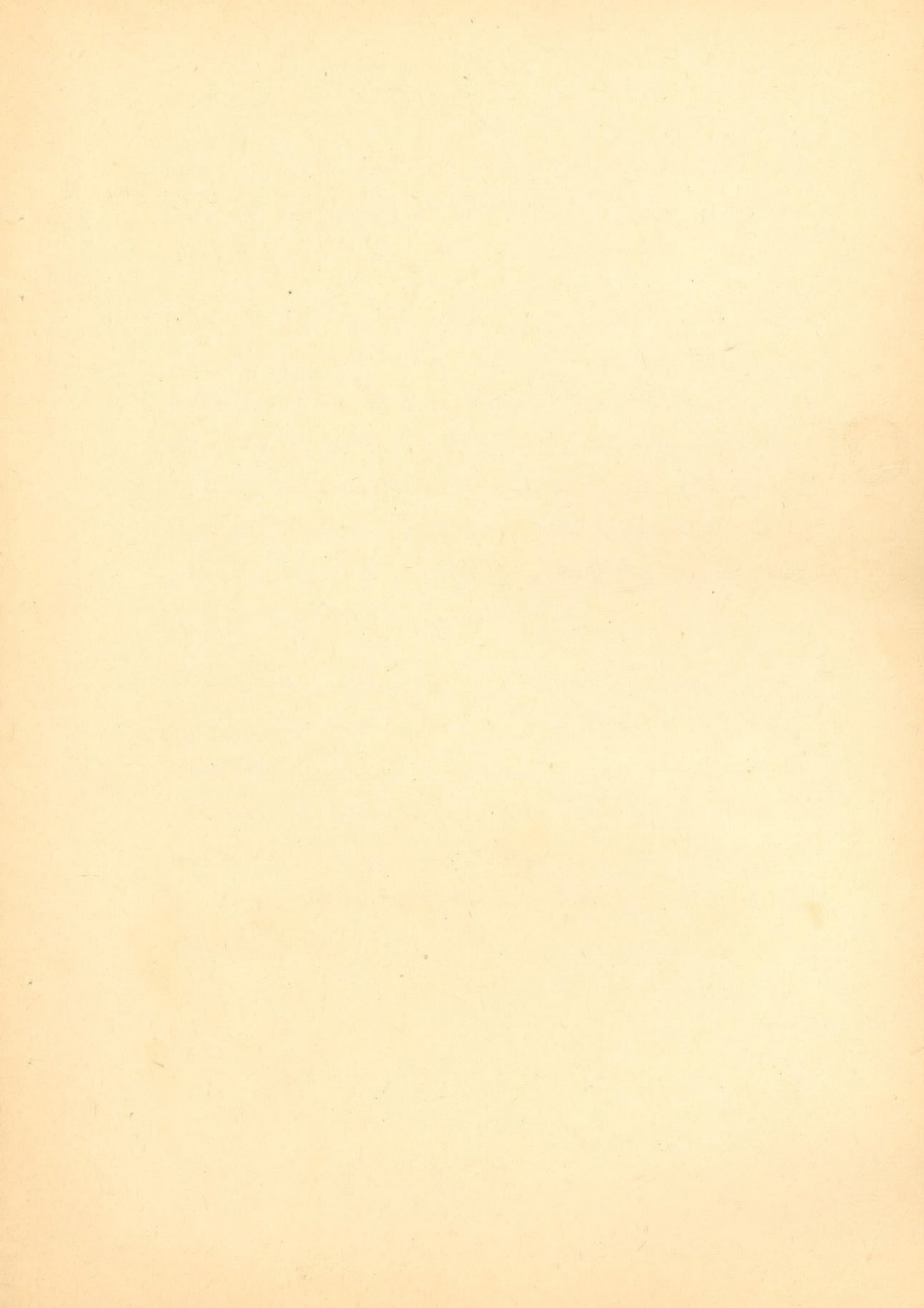
ولا شك في ان القرشيين كانوا ينظرون الى حال الجزيرة بعين غير راضية عن تفككها وقلة الامن فيها ؛ ولذلك ترى ان شعورهم بأنهم أمة يجب أن يكون لها كيان خاص قد أخذ في الظهور : فها هو عبد المطلب يخرج من مكة الى حمير ليهنىء سيف بن ذي يزن على نجاحه في طرد المستعمر الاجنبي ، ولعله كان يمهد لعقد محالفة معه لاخضاع وتوحيد كل عرب الجزيرة .

كانت مكة تسير في طريق صحيح نحو الوحدة العربية ، وانشاء دولة

موحدة ، ولكن كان ينقصها الزعيم الذي يوصلها الى تلك الغـاية ، والذي يفكر بعقل سياسي واقعي . ومـا زال ذلك الزعيم غائباً حتى بداية القرن الميلادي السابع .

اشتهرت مكة كمركز مهم للتجارة في كل الجزيرة العربية ، واشتهرت يثرب بأنها مركز للصناعة ؛ ففي يثرب كان السكان من اليهود الذين يقال انهم وصلوا الى هناك منذ أيام موسى عليـه السلام ، ومكثوا في مكانهم ذاك فأقاموا البنيان ، واشتغلوا بالزراعة والصناعة . وكان اليهود يقدمون عليهم من فلسطين وغيرها منذ أن بـدأ الرومان والمسيحيون في اضطهادهم في الامبراطورية الرومانية . وأخـذ كثير منهم يلجأ الى المدينة فكثر سكانها ، وانتظمت زراعتها وصناعتها . وكان من اشهر القبائل اليهودية في يثرب قبائل بني قريظة ، وبني النضير ، وبني قينقاع .

فلـما انكسر سد مأرب هاجر جماعة من أزد اليمن الى يثرب كما هاجروا الى جهات كثيرة مختلفة ، وأقامت منهم قبيلتا الأوس والخزرج في يثرب . وكانت السلطات في بادىء الأمر لليهود حتى قوي العرب فاستقلوا عن اليهود، وكانت العلاقة بين القبيلتين على خير وئام . ولكن ما لبثوا أن اختلفوا فـيما بينهم في السيادة ، وانتهى هـذا الاختلاف لحرب نشبت بينهم ، وتناوبوا النصر في هـذه الحروب حتى أنهكتهم دون أن يظفر فريق بآخر حتى التقوا بالنبي (ص) فدعاهم الى الايمان برسالته .



٥

محمد «صلى الله عليه وسلم»

ولد محمد في قريش يتيماً إذ توفيَ والده قبل مولده ، وأرضعته حليمة السعدية على مضض لأنها كانت تريد أن ترضع طفلا يستطيع والده ان يغدق عليها من خيراته ، ولكنها لما كانت فقيرة أنف الرجال من قريش أن يعطوها ابناءهم لإرضاعهم ، فرضيت آخر الأمر بمحمد وانصرفت .

أقام محمد في بني سعد بالبادية حتى بلغ الخامسة حين كفله جده عبد المطلب الذي كان يغدق عليه من حبه وعطفه ، ويدنيه من مجلسه دون غيره من ابنائه ، ثم سافر محمد الى المدينة مع أمه التي قصدت زيارة أهل لها هناك ، وفي طريق عودتها الى مكة توفيت آمنة بنت وهب في الابواء ، بين يثرب ومكة فكان لهذا اليتم ايضاً أثره في تقريب عبد المطلب له . بيد ان عبد المطلب مات عندما بلغ سنه الثمانين ، وكان محمد في الثامنة . وتولى أمره

بعد ذلك عمه أبو طالب الذي قربه اليه ، وصحبه وهو في الثانيـة عشرة من عمره في رحلته الأولى الى الشام بعد إبداء رغبتـه في ذلك دون ان يصحب معه أحداً من أبنائه ، وما ذلك إلا لأنه أنس فيه من الصفات ما فاق بهـا على الآخرين .

وفي هـذه الرحلة التقى بالراهب بحيرا ، ونصحهم الراهب بألا يتوغلوا بالغلام في الشام حتى لا يؤذيه اليهود . ويقـال ان بحيرا رأى فيـه أمارات النبوة ولذلك حذر من أذى اليهود ، وفي هذه الرحلة رأى محمد أشياء كثيرة غريبة عليه ، فقد رأى مدنية غير التي شاهدها في مكة والجزيرة العربية ، ففي بلاد الشام رقي وحضارة في البناء والهيئـة والملبس ، ورأى الفرق بين خشونة سكان البادية وبلاد العرب ، وجرأتهم على جارهم ، وعدم إقرار أمن بينهم وتثبيت الأمن والقانون في بلاد الشام الواقعـة تحت سيطرة الروم ، ولقد ساعدته فطانته وذكاؤه أن يقارن بين الأمتين : العربيـة في تفككها والرومانية في تمركزها .

واشتغل محمد في صباه بما يشتغل به غيره من الصبيان ، فهو قد رعى الغنم لأهل مكة وكان لذلك أثر كبير في شخصيته اذ استفاد يقظة وقوة ملاحظة كلما خرج للمرعى أو عاد اليهم ، وأحب الخير لمـا يرعاه ، ورضع هنـاك المسؤولية وهو صغير ، وصارت ديدنه وهو كبير .

واستأجرته خديجة كما استأجرت غيره من قريش في تجارة لهـا ومحمد في حوالي الخامسة والعشرين ، ثم ما لبثت ان عرضت عليه الزواج لما رأت فيه ، وتم الزواج بينهما فكانت له خير عون فيما بعد حين أمر بالدعوة الى الاسلام .

لم يكن محمد خامل الذكر قبل الرسالة ، فهو شاب استطاع ان يكتسب

كثيراً من احترام مواطنيه وحبهم ، وقد شحذ تفضيل عبد المطلب إياه على بنيه همته ، وكذلك كان الامر حين لجأ الى ابي طالب ، فكان يفكر دائماً في ان يدلل على اهليته لذلك الامتياز بأن يزن الأمور قبل ان يختلط بها ، وكان ذلك شعوراً بالواجب ساعده على ان يبز غيره ممن هم في سنه ، فكان مقدماً محترماً .

ومع فقره المادي إلا أنه كان غني النفس فلم يمد يده الى مال غيره ، ولم يمسس مال خديجة بالباطل بل أفاض في ربحها وحدثها عنه ميسرة مولاها عن نزاهته وأمانته في معاملة الناس ، وفي أموالها مع أن المتوقع أن يذمه لها غيرة من منزلته عندها ومكانته كمسؤول عن التجارة والأموال .

وقبلت به قريش حكماً حين ارادت تجديد بناء الكعبة ، فقد اقتسمت قريش جوانب الكعبة لكل قبيلة جانب ، وأرادوا أن يهدموها ، وكان اول من حطم جانبه الوليد بن المغيرة وانتهوا من الهدم ؛ ثم اختلفوا بعد البناء في من يضع الحجر الاسود . ودلهم ابو امية بن المغيرة المخزومي على رأي هو أن يجعلوا الحكم بينهم أول من يدخل من باب الصفا . ودخل محمد ، وقبلوا « بالأمين » وحكمه ، فأخذ ثوباً فنشره ، ووضع عليه الحجر ، ثم حمل الثوب رجل من كل قبيلة ، وتناول محمد الحجر ووضعه في مكانه وكل الناس راضون .

ولم يكن محمد مطمئناً لعبادة قومه ودينهم الوثني ، فاتخذ غار حراء للعبادة والتأمل ، فكفى نفسه شر الناس ردحاً من الزمن ، وصرف همه الى التفكير في الحياة وما فيها من مفارقات ، وكان يقارن بين حياة العرب وعباداتهم ، ودين آبائه من آل ابراهيم ملتمساً الحقيقة والمعرفة حتى بلغ الاربعين وعند ذلك أراد الله ان يرسله بشيراً ونذيراً للعالمين .

بـــدأ النبي دعوته ببثها الى اقرب الناس اليه ممن نال ثقتهم ونالوا ثقته فأسلمت خديجة وعلي بن ابي طالب وزيد بن حارثة ثم ابو بكر فعثمان والزبير وعبد الرحمن وسعد وطلحة ، واستمرت هذه الدعوة السرية ثلاث سنوات ، ثم أخذت تتسع حتى جهر بها إذ صعد صباح أحـد الايام على الصفا ونادى في قبائل قريش حتى اجتمعوا ثم قال لهم : أرأيتم لو اخبرتكم ان خيلاً بالوادي يكمنون لكم ، أكنتم مصدّقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً . قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. ان الله امرني ان انذر عشيرتي الاقربين واني لا املك لكم من الدنيـــا منفعة ؛ ولا من الآخرة نصيباً إلا ان تقولوا لا إله إلا الله . فقال ابو لهب : « تباً لك سائر هذا اليوم ؛ ألهذا جمعتنا ؟ » ومنـذ ذلك اليوم أصبحت الدعوة جهراً ، ولقي محمـــد من عداوة قريش وعنتهم الكثير .

وكان ابو طالب يمنع ابن اخيه من اذى الكفار ، وحاول الكفار اغراءه بأن يعطوه عمـــارة بن الوليد اكثر فتيان قريش وسامة فيتخذه ولداً ، ويأخذون محمد ليقتلوه لأنه كان يدعو لأمر لم يألفوه ، ثم جاء الناس للحج ، وأخـذ القرشيون يتصلون بالناس ، يخبرونهم عن محمـــد ويسفهون لهم أقواله ، ويقولون لهم إنه لساحر ، فذاع امر محمـــد مع الركبان . ثم أغرى القرشيون سفهاءهم بمحمـــد كما عذبوا المسلمين ، وبدأت سلسلة من الاضطهادات الدينية . أذن محمد لأصحابه بعدها أن يهاجروا الى الحبشة حيث كان ملك الحبشة ممن يؤمنون بحرية الدين ، ولكن ما لبث ان ارسلت قريش وفـــداً من عمرو بن العاص وعبد الله بن ابي ربيعـة لتحريض النجاشي على المسلمين ؛ إلا ان محاولتهم باءت بالفشل .

وعزمت قريش على التنكيل بمحمد . فاجتمعت وعقدت محالفة اتفق

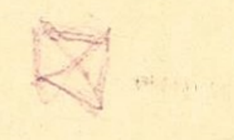
عليهـــا سائر البيوت القرشية على ألا يبيعوا أو يبتاعوا من آل هاشم وعبد المطلب وألا يتزوجوا منهم ثم علقوا صحيفة بذلك في الكعبة ، واستمرت المقاطعة سنوات ثم ما لبثوا ان نقضوها .

ومات أبو طالب وخديجة في يومـــين متقاربين ، وفقد محمد سندهما ومؤازرتهما الادبية والنفسانية ، فهـاجر إلى الطائف ، ولم يحسن الثقفيون استقباله ، واشتطوا في إيذائه ؛ فآثر مكة عليها ، ورجع مستجيراً بالمطعم ابن عدي .

وفي أحـد مواسم الحج التقى بوفد من قبيلة الأوس قدم الى مكة على أثر هزيمة منكرة حلت بفريقه من جانب أبناء عمومتهم الخزرج . وكانت المنافسة بين القبيلتين في يثرب عظيمة أدت الى حروبات متعددة ، وتبادلت القبيلتان النصر . وكان الاوس يؤملون ان يجدوا من قريش حلفاً على أعدائهم إلا أنهم لم يظفروا بوعد ، واتصل بهم النبي ودعاهم الى الاسلام ، ولكن دعوتـــه لم تجد صدى فعالاً في نفوسهم فانصرفوا قاصدين يثرب .

وفي السنة التالية جاء وفد من الخزرج الى مكة بعد ان هزمهم الأوس وهم يبحثون عن حليف لهم في قريش ، والتقى بهم محمد بعـد ان فشلوا في الوصول الى اتفاق حربي مع قريش ، وسمعوا لمحمد ورأوا في دعوته سلماً لهم ولاخوانهم وأسفرت الدعوة عن أثر حسن ازداد في العـام التالي حين قـــدم جماعة من الأوس والخزرج ، واتفقوا متضامنين على الدفاع عن محمد ضد كل عدوان وبذلك تناسوا حقدهم القديم بهذا الضمان . وكانت يثرب كلها تتحدث عن هذا الاتفـاق الذي لم يكن الغرض من ذهابهم الى مكة . واشتد إيذاء قريش لمحمد وأصحابه ، فأذن للمسلمين بالهجرة الى يثرب ، ثم لما تآمر عليـه

القرشيون وأرادوا قتله خرج خلسة هو وصاحبه أبو بكر من مكة وسلكا سبيلهما نحو يثرب التي سميت بعد ذلك بالمدينة . وبذلك انتهى نشاط محمد في مكة حيث كان النطاق ضيقاً والشعور قوياً ضد الدين الجديد الذي يريد ان يقيد الناس بقوانين وعبادات ، واخذ الاسلام شكلاً جديداً بعد ان كان مستضعفاً في مكة .



٦

دولة المدينة

خرج محمد من مكة عندما أصبح خطرها عليه لا يطاق ، إذ كان القرشيون ينوون قتله والتخلص منه ومن دعوته نهائياً ، فهاجر محمد الى المدينة بعد أن عقد اتفاقاً مع الأوس والخزرج على ان يحموه ويدافعوا عنه . كما وعدهم بأنه اذا انتصر في النهاية على قريش فانه لن يعود الى مكة بل يظل في المدينة التي ستظل مركز نشاطه . فلما وصل الى المدينة كان أول عمل قام به هو أنه عقد محالفة عدم اعتداء بينه وبين اليهود المقيمين في المدينة وهم بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع ، فأمنهم على أموالهم وأنفسهم وأقرهم على دينهم ، ووعد بعدم التعرض لهم ، ومن هنا يظهر لنا جلياً أن النبي عندما وصل الى المدينة لم يكن يفكر في شرح تعاليم الدين الاسلامي فحسب ولكنه كان يريد إقامة دولة إسلامية آمنة مركزها المدينة ، وذلك لان الاسلام زيادة على ما فيه من معتقدات وعبادات، فيه كذلك تشاريع

وقوانين لا يمكن أن يسير عليها المسلمون إن لم تكن لهم دولة لها كيانها الخاص ومن هنا ظهر الاسلام كدين ودولة .

وكان المعلوم ان محمداً ذهب الى المدينة كلاجىء ديني سياسي ، ووعده المدنيون بأن ينصروه إن هوجم . فلما وصل الى هنالك اختلف الموقف عما كان عليه فبعد أن كان لاجئاً أصبح أميراً على دولة ، فهو أولاً عقد محالفة مع يهود المدينة ، ثم هو يرى نفسه ويراه المسلمون من مهاجرين وأنصار رأساً للدولة الاسلامية الصغيرة – أو بعبارة اكثر تواضعاً – للجالية الاسلامية بالمدينة. واكتسب محمد هذا المنصب لانه هو الممثل للشرع الاسلامي ، والمنفذ لتلك القوانين على كل المسلمين .

ولم يؤمن بالرسالة كل الأوس والخزرج ؛ ولكنهم ارتبطوا بالاتفاق الذي يقضي بالدفاع عن محمد . اما اليهود فقد أمن بأسهم بتلك المعاهدة كما استرضاهم بعدم التعرض الى دينهم ، وكان المسلمون في ذلك الوقت يولون وجوههم في صلاتهم شطر بيت المقدس ، فاعتقد اليهود أن ذلك يرجع الى نفوذهم على الاسلام ، وأرضاهم هذا التوافق بين الدينين ، وقبلوا مهادنة محمد وكان النبي يشعر بأن اليهود خطر يجب أن يحذره لأنه يريد ان يوجه نشاطه السياسي والحربي ضد معقل الوثنية العربية القابعة في مكة حيث استطاعت قريش أن تسيطر على العقل العربي من هناك،ولهذا فقد عمد محمد الى عقد هذا الاتفاق .

بقي على محمد بعد ذلك أن يحدد علاقته بقريش ، فاما ان يتركهم وشأنهم ، وذلك يعني أنه اعترف بالهزيمة الادبية والروحية ، فهو يعلم انه لا قبل له بهم ، وليس في استطاعته محاربتهم بمن معه من المهاجرين وحدهم لان الانصار وعدوه بالدفاع عنه اذا هوجم ولم يرتبطوا بالقتال معه في حالة

اعتدائه على قريش . وكان الامر الثاني أن يجاهد محمد القرشيين على قلة اصحابه مهما كلفه الامر ، وان يستفيد بحنكته السياسية في هذا الصراع . ورأى محمد ان من الخير ان يرد عدوان قريش السابق له ولأصحابه عندما كانوا بمكة بعدوان منظم يرمي الى اخافة قريش ، وزعزعة امنها وتجارتها واقتصادياتها .

اختار محمد المدينة مركزاً لنشاطه ، وكانت المدينة بالقرب من طريق القوافل بين مكة والشام ؛ وبفضل هذا الموقع عمد محمد الى مهاجمة قوافل قريش التي كانت تسير من الشام الى مكة ، كما عمد الى مهاجمة كل ما يعود امتلاكه الى قريش من مال أو رجال : ومن هنا بدأت السرايا والغزوات ، وكان غرضها الرئيسي محاصرة قريش اقتصادياً ، واضعاف مكانتها الاقتصادية والادبية بين سائر العرب . ولم تكن هذه الغزوات مجرد هجوم وسلب كما كان يفعل عرب البادية ولكنها كانت هجوماً منظماً نحو جماعة خاصة هم قريش وأحلافها .

لم تأخذ هذه السرايا والغزوات شكلا جدياً أول امرها بل كانت عبارة عن مناوشات الغرض منها فرض حصار اقتصادي على قريش بمكة كما كانت ترمي الى تهديد القبائل المحالفة لقريش ، أو تربطها بقريش روابط صداقة ، وكان المسلمون في أثناء غزواتهم يكسبون عدداً من القبائل المجاورة والتي كانت في الطريق بين المدينة ومكة اما عن طريق التهديد والوعيد أو الترغيب . واستطاع المسلمون في هذه الآونة وما بعدها أن يجردوا قريشا من كثير من القبائل الصديقة دون أن تفعل قريش شيئاً للدفاع عن هذه القبائل.

وكان اول صدام خطير بين المسلمين وقريش هو في غزوة بدر اذ كان

الصدام في هذه الموقعة كبيراً بين مكة والمدينة ، وفي هذه الغزوة خرج النبي ومعه عدد من المهاجرين وعـدد أكبر من الأنصار . وبالرغم من أن الأنصار اصبح عدد كبير منهم مسلمين إلا ان النبي لم يطلب منهم او يأمرهم بالاشتراك معه في قتال قريش ، ولم يشأ محمد ان يأمر الانصار بقتال القرشيين معه ، كما انه لم يرسل أحداً منهم في غزواته وسراياه الاولى ، بـل كان رجالها من المهاجرين القرشيين .

وفي غزوة بـدر كان الامر يتطلب الحسم فاما ان يستمر المدنيون حلفاء للنبي في حالة الدفاع واما ان يعتبروا مسلمين فيكون واجبهم كواجب اخوانهم المهاجرين فيصبح الجهاد واجباً عليهم ، وتعطى الكلمة العليا والقيادة العامـة لمحمـد .

علم النبي بقدوم قافـلة كبيرة من الشام يقودها ابو سفيان ، فخرج النبي ومعه عدد من المهاجرين والانصار للاستيلاء على القافلة ، ولكن اخبار هـذا الهجوم بلغ ابا سفيان واستطاع ان ينجو بالقافلة ولكن بعـد ان ارسل الى قريش يستعديهم على محمد ويطلب منهم ان ينقذوا اموالهم ، وخرجت قريش لمواجهة العدوان الاسلامي وبالرغم من نجـاة القافلة إلا انهم أصروا على النزول بماء بدر حيث كان يعسكر جيش المسلمـين وعدهم ٣٠٠ من مهاجرين وأنصار ولكن الكثرة من المدنيين .

كان محمد يتوقع قتالا ، لذلك سأل أصحابه ان كانوا على استعداد لمواجهة العدو ، وعـلم الانصار انهم المعنيون بهذا الامر فأوضحوا موقفهم بأنهم على استعداد للتضحية من اجل الدين الاسلامي ، والائتمار بتعاليمه وأوامر النبي وبدأت المعركة ؛ وبالرغم من تفوق عدد القرشيين اذ كانوا ٧٠٠ انتهت بتغلب

المسلمين ، فقتلوا عدداً من قريش كما أسروا آخرين : وفرت قريش من الميدان في يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ هـ الموافق ١٢ مارس سنة ٦٢٤ م.

كانت غزوة بدر هي اول صدام كبير بين المسلمين والقرشيين ، وكان عليها يتوقف كثير من النتائج ؛ فانه بعد هزيمة قريش كسب المسلمون روحاً عسكرياً قوياً فلم تعد قريش ذلك المارد الذي كان يضطهدهم في مكة من قبل ، وزادت هيبة المسلمين في المدينة حيث جماعة من الانصار لم تقبل الدين الاسلامي ، وحيث اليهود ، كما زادت هيبة المسلمين في سائر الجزيرة العربية حيث تتمتع قريش بمكانة ملحوظة . واستطاع محمد بعد هذه الغزوة أن يوحد صفوفه من مهاجرين وأنصار اذ قبل الأنصار أن يشتركوا مع اخوانهم المهاجرين في الاعتداء على قريش وجمع المسلمون كثيراً من الغنائم في المعركة فقسمت بينهم كما رأى محمد . كما انه طالب المتيسرين من الأسرى ان يدفعوا الفدية ليطلق سراحهم ، ففعل عدد منهم . أما من لم يكن لديه مال ليدفع فداءه فقد جعل محمد فداءه تعليم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة حتى اذا انتهى من هذه المهمة اطلقه محمد . فكان محمد اول من وضع الحجر الاساسي للتعليم في الجزيرة العربية بأن افتتح هذه المدارس والفصول حيث تعلم الصبيان مبادىء القراءة والكتابة فهو لم تصرفه الرسالة او السياسة أو الحرب عن شئون التعليم بالرغم من أميته . وتركت هزيمة قريش أثراً مهماً في نفوس العرب اذ زعزعت هذه الهزيمة مكانة قريش في الجزيرة وعلم العرب ان هناك قوة دينية تصارع قوة الدين الوثني ؛ بل برهنت هذه القوة الجديدة على انها اكبر من قوة الوثنية العربية ، وما هذه إلا قوة الدين الجديد الذي جعل مقر دولته في المدينة ، وهناك المسلمون يطيعون رجلاً واحداً ويأتمرون بأمره بخلاف ما عهدته الجزيرة العربية .

وكانت هذه الهزيمة بمثابة تهديد غير مباشر لدولة اليهود في المدينة اذ شعر اليهود بحرج موقفهم ان استطاع محمد ان ينتصر على قريش في النهاية اذ معنى ذلك ان التوازن في المدينة بل في كل الجزيرة سوف يختل ، وكان هذا الخوف هو مبعث نشاط يهودي يرمي الى اضعاف قوة المسلمين في داخل المدينة وخارجها .

والمدينة أضيق من ان تحتمل دولتين : دولة اسلامية ودولة يهودية. وكان لا بد من بقاء الأصلح . وهكذا بدأ الصراع بين الدولتين المتنافستين على المدينة . ولما كانت لليهود قبائل ثلاث في المدينة فقد رأى محمد أن يقصر همه على واحدة منها اول الامر . وأسفر بنو قينقاع عن عداوتهم للمسلمين ؛ وأخذوا يسيئون معاملة الافراد المسلمين ، واعتدى احدهم على امرأة مسلمة فاستغاثت، وكان ذلك بمثابة اعلان الحرب بين بني قينقاع والمسلمين ولم يستطع اليهود ان يصمدوا امام المسلمين فتحصنوا ؛ ولكن ذلك لم يجدهم نفعاً فطلبوا الصلح؛ وأخرجوا بمقتضاه عن المدينة دون ان يفقدوا كثيراً . وهكذا سجل محمد والمسلمون نصراً آخر في المدينة كما انتصروا في بدر .

بيد ان القرشيين لم ينسوا ما حل بهم في بدر فأرادوا ان يستردوا مكانتهم بالتغلب على المسلمين فخرجوا من مكة وقد أعدوا انفسهم والتقوا بالمسلمين قرب جبل أُحد حيث خرج المسلمون لمصادمتهم ، وفي هذه المرة ايضاً كان المسلمون أقل عدداً من القرشيين ، وانتهت المعركة بانتصار القرشيين بسبب انصراف بعض المسلمين عن اماكنهم بعد ان كادوا ان ينتصروا اول الامر فطوقهم القرشيون وهزموهم هزيمة منكرة وفر كثيرون . ومع ذلك فان النصر لم يكن حاسماً إذ لم يتقدم القرشيون للهجوم على المدينة بل قفلوا راجعين الى مكة وهم يقولون : يوم بيوم وموعدهم مع المسلمين العام القادم .

كان أثر هزيمة أحد كبيراً على المسلمين وعلى هيبتهم التي اكتسبوها بعد بدر ، فقد اخذ اليهود في المدينة يسخرون منهم ومن دينهم . وكان المدنيون والعرب من غير المسلمين برئاسة عبدالله بن ابي بن سلول يشاطرون اليهود هذه السخرية ، وضعفت مكانة العرب في نفوس القبائل العربية ، واستعادت قريش سابق احترامها : وأرادت هذه القبائل ان تتقرب الى قريش بالتنكيل بالمسلمين ، فأخذوا يقدمون على محمد ويطلبون منه ان يرسل معهم وفداً ليعلمهم الدين ، حتى اذا ارسل محمد بعض المسلمين قبض عليهم هؤلاء العرب فأما قتلوهم واما باعوهم لقريش . وقد قامت قبيلة بني عامر بمثل هذا فقتلوا بعض الموفدين من المسلمين ، وهرب اثنان منهم واستطاعوا في الطريق الى المدينة أن يقتلا اثنان من بني عامر ، إلا أنه ظهر انهما مسلمان انصرفا من المدينة بعد اسلامهما ، ورأى محمد ان يدفع ديتهما لأهلهما ، وانتهزها فرصة لإيجاد خلاف ظاهر مع اليهود ، فقدم على بني النضير وطلب منهم ان يشاركوا المسلمين في الدية لأنهم من سكان المدينة ويجب ان ينزلوا على حكم السلطان لا ان يكونوا دولة داخل دولة . فرفض اليهود وكان ذلك اشعاراً منهم بأنهم لا ينزلون على حكم الدولة الجديدة ولا يعترفون بها . وأمام هذا الرفض من جانبهم أمرهم النبي بالخروج من المدينة وإخلائها ، فامتنعوا ، ثم حاصرهم وأجبرهم على الخروج دون ان يراق لهم دم ، فقوي مركز المسلمين في المدينة ، كما انهم من الناحية السياسية كسبوا نصراً خفف من هزيمتهم الحربية في أحد .

لم تمح قريش هزيمة بدر بانتصارها في أحد فحسب بل انها استطاعت أن تسترد مكانتها ، وذهبت الى ابعد من ذلك فجمعت كثيراً من القبائل العربية حولها وأوعزت اليهم بالانضمام اليها لمحاربة محمد واكتساب غنائم المدينة . وتم

هذا التأليب على المسلمين حين خرجت قريش وأحلافها في جيش يبلغ العشرة آلاف قاصدين المدينة ، فلما علم المسلمون بقدومهم وكثرتهم حفروا خندقاً حول المدينة وتحصنوا فيه ، ومن ثم عرفت هذه الموقعة بواقعة الخندق أو الاحزاب لكثرة احزاب قريش ، ولم يقدر القرشيون على اختراق الخندق ، ولم يخرج اليهم المسلمون ، وطال الحصار حتى بلغ شهراً تقريباً ، وسئم القرشيون حياة المعسكر فرجعوا الى مكة يقودهم ابو سفيان . وكان لحصار المدينة أثر عظيم في نفوس المسلمين خصوصاً بعد ان قبل اليهود الدخول في حلف قريش والانقضاض على محمد من داخل المدينة ، وخشي المسلمون التطويق من الجانبين لذلك لما رحلت قريش كان على المسلمين ان يتأكدوا من سلامة ظهورهم في المستقبل وذلك بالقضاء على دولة اليهود في المدينة نهائياً ولم يكن منهم الآن فيها غير بني قريظة فحاصرهم النبي واستسلموا له آخر الامر فقتل رجالهم وسبى نساءهم وأطفالهم، وبقيت المدينة مركزاً اسلامياً خالصاً لا يشاركهم فيها احد ، وكان هذا بمثابة القضاء على دولة اليهود في المدينة وإنهاء الحالة التي كان اليهود فيها عبارة عن دولة داخل دولة .

بعد رجوع جيوش الاحزاب عن المدينة والقضاء على اليهود تحسن موقف المسلمين كثيراً إذ اعتبر انسحاب قريش هزيمة لها ، ونصراً للمسلمين . ثم إن القبائل التي حاصرت المدينة مع القرشيين مثل غطفان لم تظفر من محالفتها لقريش بشيء ، ورجعت الى ديارها دون ان تحقق هدفها ، وأصبح الحلف مفصوم العرى لا تربطه رابطة . وصار من الممكن لمحمد وأصحابه الآن اخذ خطوات ايجابية ضد قريش طالما ان روحها المعنوي قد هبط حتى تحيق بها الهزيمة نهائياً .

لذلك خرج محمد في العام السادس للهجرة هو وجماعة من المسلمين يقدر

عددهم بألف واربعمائة قاصدين الحج الى مكة وقـد ساقوا معهم سبعين جملاً للهـدي . وعلمت قريش بقدمهم فتوجست شراً ، وانتدبت الى المسلمين من يتصل بهم ويسألهم عن اسباب قدومهم ، وأخذت المفاوضات بـين الجانبين تسير في مسالك وعرة حتى بلغ المسلمين ان قريشاً قتلت سفيرهم لهـا وهو عثمان بن عفان ، وهنـا اقسم النبي ألا يرجع الى المدينة حتى يقاتل قريشاً ، وبايعه اصحابه بيعة الرضوان وفيها يهدفون الى قتال قريش ان صدقت الانباء بمقتل عثمان .

بيد ان الوقت كذب هذه الانباء ، وقدمت رسل قريش تريد الصلح مع محمد ، وعرف ذلك بصلح الحديبية ، نسبة الى المكان الذي تم الاتفاق فيه .

كان من أهم شروط الصلح :

١ – أن يعود المسلمون الى المدينة هذا العام على ان يعودوا في العام التالي للحج ، وأن يحملوا سيوفهم في القرب . وكانت قريش تهدف الى الاحتفاظ بمكانتها السامية بين العرب إذ لو سمحت لأعدائها بدخول مكة للحج دون استئذان منها لاعتبره العرب نصراً للمسلمين ، وهزيمة لقريش : لذلك أصرت قريش عليه وقبله محمد على ما فيه من كيد له ولأصحابه . وما فيه من ضرر لموقفه في الجزيرة العربية ، واكتفى بأنه كسب الجولة الأولى حين جـاء الى قريش في عقر دارهم ولم يستطيعوا أن يقاتلوه كما فعلوا من قبل .

٢ – وافق كلا الطرفين على عقد هدنة بينهما مدتها عشر سنوات .

ومعنى هذا ان قريشاً لن تشاهد حصاراً اقتصادياً عليها من المدينة كما كان يحدث سابقاً ، واطمأنت الآن على تجارتها ، وهكذا يبدو انها هي الرابحـة

ايضاً من هذا الشرط . وكان المسلمون أنفسهم في حاجة الى هـذه الهدنة إذ كان النبي يرى أن عليه تبليغ رسالته لغير قريش وخشي أن يطول الكفاح ضد قريش فلا يصل الى أهداف بعيدة لذلك قبل هذا الشرط وسنرى كيف أنه وجه نشاطه خلال هذه الهدنة الى غير عرب الجزيرة .

٣ - إذا اسلم رجل من قريش وجاء الى المسلمين وجب عليهم ارجاعه الى مكة وألا يجيره المسلمون . أما اذا ارتد مسلم فان لقريش الحق في أن تقبله. وقد عارض المسلمون هـذا الشرط معـارضة شديدة ورأوا فيـه إجحافاً لكفاحهم المرير ، ولكن النبي وافق على هذا الشرط . وكان من نتائجه ان دخل عـدد غير قليل من القرشيين في الدين الاسلامي ولكنهم عرفوا أنهم لن يجدوا مكاناً في المدينة ، فما كان منهم إلا ان كونوا عصابات أخـذت تهاجم الطرق التجارية .

٤ - أعطي الحق لكلا الفريقين في المنافسة السلمية للحصول على حلفـاء من بين القبائل العربيـة ، على ان كل قبيلة تدخل في احـدى المنظمتين يجب عليها ان تراعي شروط الهدنة فلا تعتدي على الآخرين .

وكان ظاهر هذه المعاهدة أنها في صالح قريش في كل النقـاط بالرغم من أن المسلمين وجدوا فيها ما يفيد غرضهم البعيد . وأحب محمـد أن يستفيد الفائدة القصوى من هذه المعاهدة ، فعزم المسلمون على القيام بسياسة خارجية عنيفة تضاهي خسارتهم الادبية السطحية في هذه المعاهدة . ولذلك فقد عمد محمد مع أصحابه الى مهاجمة القبائل اليهودية التي هاجرت من المدينة الى خيبر شمال المدينة . وكان المسلمون لا يزالون يخشون من الدعايات اليهودية ونفوذهم في البلاد ، ولهذا فقد كان المسلمون مضطرين الى اخضاعهم كما اخضعوا غيرهم

من القبـائل العربيـــة . وفي خيبر تحصن اليهود خلف أسوارهم ، وضرب المسلمون عليهم الحصار دون ان يخشوا من هجوم قريش على المدينـة . وفي نهـاية الحصار استسلم اليهود فأمنهم الرسول على أنفسهم وأموالهم ووضع عليهم الجزية يدفعونها للخزينة الاسلامية . ثم رجع عنهم الى المدينه .

خلت أكف المسلمين الآن لتوجيه سياستهم خارج الجزيرة بعد أن أمنوا شر قريش في داخلهـا ، فأخـذ الرسول (ص) يرسل الرسائل الى الحكام والولاة المعروفين في الدنيـا القديمـة ، فأرسل الى قيصر الروم ، وكسرى الفرس ، ونجـاشي الحبشة ، والمقوقس عظيم القبط يدعوهم الى الاسلام ، فان لم يفعلوا فعليهم أن يدفعوا الجزية وهم صاغرون ، والا فـإن دولة الاسلام سترى أنه لا مناص من اعلان الحرب عليهم وإزالة السلطات غير الاسلامية ، وإقامة حكومات تعطي الافراد حرية كاملة في اعتناق الاديان. وفي كل هذه البلاد ماعدا الحبشة كانت الحريات الدينية غير مكفولة للافراد كما عرفنا ذلك من الاحوال التي كانت عليها هذه الاقطار قبل ظهور الاسلام ، وما كان فيها من اضطهاد ديني .

وفي غضون هذه الهدنة وبعد ان ازداد عدد المسلمين قليـــلاً في الحجاز بفضل نشاط محمد ، اوفد محمد بعثة عسكرية في السنة الثامنة للهجرة بقيادة زيد بن حارثة ومعه ثلاثة آلاف مقاتل لملاقاة شرحبيل بن عمرو الغساني الذي كان بمثابة خط الدفاع الامامي لامبراطورية الروم وكان الحارث قد اعتدى على رسول المسلمين لهرقل قيصر الروم حين ذهب ليدعوه الى الاسلام، وقتله. ونزل جيش المسلمين بلدة معان في اطراف الشام ، وهناك علموا بأن جيوش الروم الكثيفة زاحفـــة لملاقاتهم ، فتراجع المسلمون الى قرية مؤتة حيث اصطدموا بالروم وقتل قائد المسلمين زيد في المعركة كما قتل نائبـه جعفر بن

أبي طالب، ثم تولى القيادة خالد بن الوليد واستطاع ان يتقهقر بالجيش بانتظام دون ان يخسر المسلمون اكثر من اثني عشر رجلا . ومن هذه المصادمة علم المسلمون انهم في حاجة الى تركيز جهودهم داخل الجزيرة وغرس القومية العربية لمهاجمة الدولة الرومانية بالدولة الاسلامية العربية اذ ما زال العدد الاكبر من العرب على وثنيته واستقلاله وتفرقه القبلي .

لذلك نجد ان المسلمين كانوا يتحينون الفرص للايقاع بقريش والقضاء عليها حتى يتم توحيد العرب ، ووجدوا الفرصة سانحة حين هجمت قبيلة بكر المحالفة لقريش على قبيلة خزاعة حليفة المسلمين وكان ذلك الاعتداء بمساعدة جماعة من القرشيين ، فلجأت خزاعة الى المسلمين تطلب المساعدة العسكرية ضد قريش وبكر ، ورأى المسلمون انفسهم ملزمين بمساعدة خزاعة حربياً ، وحاولت قريش ان تسترضي محمداً وأصحابه فأوفدت أبا سفيان يعتذر وليقدم التعويضات المناسبة . ولم يقبل المسلمون ولذلك أعدوا جنودهم في السنة الثامنة للهجرة وخرجوا في اكثرمن عشرة آلاف رجل قاصدين مكة وضاقت السبل بقريش ولم تستطع أن تصد هذا الهجوم ، وأرغم أبو سفيان نفسه على اعتناق الدين اسمياً ، ودخل محمد مكة ظافراً ومناديه يصيح أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل الكعبة فهو آمن ، ولم يعمد الى التشفي من أعدائه الأقدمين بل سلك سياسة رشيدة اذ قال لأهل مكة « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ولم يستبح المدينة او يحرق دورها ، ولكنه اكتفى بتحطيم الأصنام التي كانت في الكعبة ، ودخل كثير من القرشيين الدين الاسلامي وقبلوا قوانين الدولة الاسلامية ، ويعد هذا الفتح تحطيماً لروح الشرك والمقاومة العسكرية في عاصمة الجزيرة الوثنية .

ثم خرج المسلمون من مكة بجيشهم الجرار يطلبون قبائل هوازن وثقيف

من حلفاء قريش ؛ وفي الطريق فوجئوا بهجوم خاطف من اعدائهم واندحروا اول الامر ثم ما لبثوا ان التفوا حول قائدهم محمد الذي ثبت في مكانه وتم النصر أخيراً في واقعة حنين للمسلمين، وارتدت ثقيف الى موطنها الطائف حيث تحصنت وراء اسوارها ولحق بها المسلمون ولكنهم لم يخضعوها . ورجعوا الى المدينة . وفي المدينة جاء وفد هوازن يطلب العفو والدخول في الدين الحنيف فعفا محمد . ثم خرج بعد ذلك الى تبوك غازيا وعاد بعد ان اخضع بعض القرى في شمال الجزيرة بين المدينة والشام وهي أيلة وكان واليها يوحنا بن رؤبة الذي قبل ان يدفع الجزية ؛ وكذلك اهل جرباء ، ثم بعد ذلك عاد محمد (ص) من آخر غزواته .

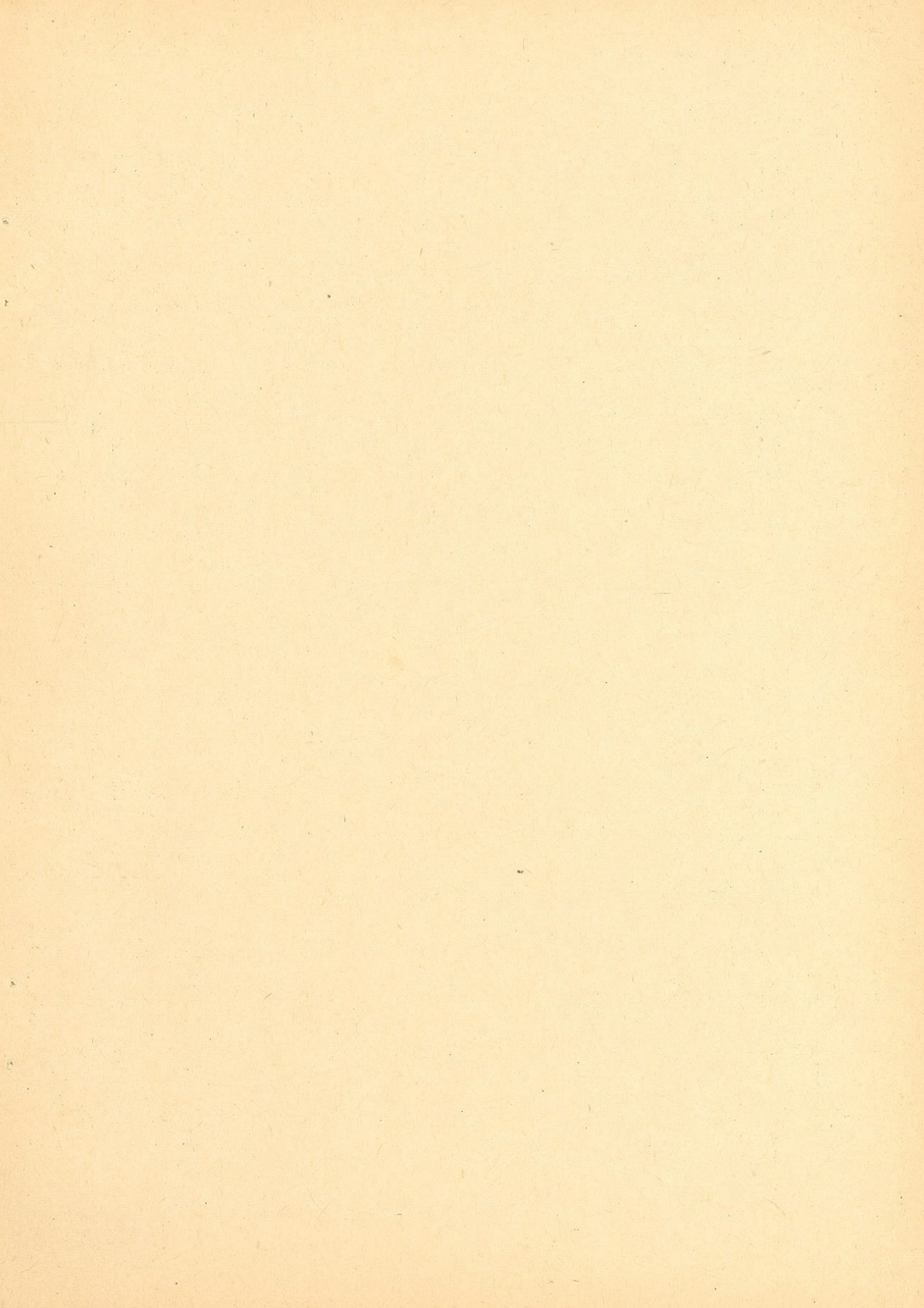
ولم يبق إلا ان تدخل القبائل البدوية تحت طاعة الدولة الجديدة، وكانت الطريقة التي اراد محمد ان يفرضها على هذه القبائل جديدة على العرب الذين كانوا لا يقبلون أي شيء مما يمكن ان يحد من استقلالهم الفردي ، فما كانوا يقبلون الخضوع الى دولة جديدة ، ودين جديد ، وقوانين جديدة . وكان محمد سياسياً في الطريقة التي اتخذها اذ انه لم يحاول ان يغير دين القبائل بالقوة بل اكتفى بالتبشير الفردي والاقناع الذي كانت تقوم به رسله ، واخذ على عاتقه المظهر السياسي والحربي حتى تدين القبائل للدولة الجديدة ، وتجد ذلك جلياً في كل المحاولات التي قام بها بعد الهجرة ، فهو كان يحالف القبائل عسكرياً دون ان يجبرها على الدين . اما بعد فتح مكة والتغلب على قريش ، والاستيلاء على البيت وتحطيم الاصنام لم تر القبائل العربية بدّاً من الاذعان الى دولة الامة العربية الاسلامية ، وفي السنة الباقية من عمر محمد (ص) بعد فتح مكة تقاطرت وفود القبائل الى المدينة مبدية خضوعها الى المدينة قابلة ان تدفع الزكاة إلا ان عقيدتها الدينية لم تكن بحال من الاحوال قوية

واصبح معروفاً « ان الاعراب اشد كفراً ونفاقاً » . وسمي هذا العام بعام الوفود فقد قبلوا نفوذ محمد السياسي ؛ ورضي بذلك محمد ريثما يفعل التبشير فيهم فعله حتى يحسن اسلامهم ، ويبدو ان الوفود كانت تحسب ان هذا العقد الذي كان بينهم وبين محمد انما كان شخصياً ينتهي بوفاة محمد . اما القبائل التي كانت في اطراف الجزيرة من الشرق والشمال الغربي فانها لم ترسل وفوداً اذ كانت تحت سيطرة الروم والفرس ، ولم تكن تشعر حتى بعد واقعة مؤتة بقوة الدولة الاسلامية .

وكانت تلك الوفود تتقاطر من انحاء الجزيرة فقدم زعماء ثقيف ، وتميم ، وبني عامر ، وبني سعد بن بكر ، وبني عبد القيس ، وبني حنيفة ومنهم مسيلمة ، وطي ، وزبيد ، وكندة ، ورسل ملوك حمير ، وهكذا دانت كل الجزيرة العربية لدولة الاسلام ، فكان محمد يرسل عماله عليهم يتولون ادارة البلاد كما كان يرسل معهم من يفقههم في الدين . فكان أهم ما قام به سياسياً انه جعل سلطة الاسلام الادارية تسود الجزيرة ، فأجبر العرب على النزول بأمر المدينة ، وبين الشرائع والقوانين حتى يسيروا بها ، وامرهم بدفع الزكاة وطاعة اولى الامر من المسلمين . وفي حجة الوداع ابلغهم اخر ما تبقى من تفصيل الشرع والقوانين وودع المسلمين ثم ما لبث ان عاد الى المدينة واسلم الروح الى بارئها في ٨ يونيو سنة ٦٣٢ الموافق الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ هـ .

وهكذا تمت رسالة محمد اذ بلغ الدين الاسلامي للناس لا في بلاد العرب فحسب بل الى غيرها من البلاد ، فقد ارسل الكتب الى الفرس والروم والحبشة ومصر يدعو فيها الى الاسلام ، كما استطاع ان يوحد القبائل العربية لأول مرة في التاريخ فنقلهم من حياة الفوضى والاستقلال الفردي المطلق الى

الظهور كأمة كاملة التكوين قامت بقسط وافر في تاريخ العالم ، ولم يكن البناء الذي شيده محمد ضعيفاً اذ انه بالرغم من موته ، وبالرغم من ارتداد بعض العرب إلا ان رسالته كانت ذات نفوذ اوسع ، فاستطاع خلفاؤه الذين عرفوه معرفة جيدة ان يصلوا بتلك الخطوط التي وضعها الى النهاية فنرى الدولة الاسلامية بعد ذلك دولة حربية توسع رقعتها في العالم .



٧

المشكلة الدستورية

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن الدين في حاجة الى تكملة اذ وضح القرآن للناس ان الدين وما يقتضيه قد اكتمل «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الاسلام ديناً»، فلم يجد المسلمون فراغاً دينياً بوفاة محمد اذ تمت رسالته ..

بيد ان وفاته من الناحية السياسية كانت سبباً لهزة عظيمة في كيان الدولة التي أقامها، فهو لم يترك والياً يتولى أمر الدولة بعده ولم تكن لتلك الدولة الاسلامية أسس موضوعة تبين الطريقة التي يكون بها الولاة، فليست للدولة الجديدة هيئة تشريعية كاملة بكيان خاص، بل كان القرآن هو المشرع الاول، وكان محمد يأمر الناس أحياناً، وفي بعض الاحيان يستشير خيرة أصحابه ويسير على ما اهتدوا اليه برأيهم واجتهادهم، وبوفاة النبي صلى الله عليه وسلم

انقطع الوحي ، وانتهت السنة ، وبقي على المسلمين ان يبحثوا فيما بينهم عن الطريقة التي يسلكونها في ادارة دولتهم ووضع دستور لها .

واختلف فيمن اختلف المهاجرون والانصار كل يرى انه أحق بأن يتولى الامر دون غيره،وكان المهاجرون منقسمين فيما بينهم اذ كان علي بن ابي طالب وزوجته فاطمة وآل هاشم يعتقدون بأنهم أولى بأن يرثوا مركز محمد كرئيس للدولة لانهم اقرب الناس صلة به ؛ بينما كان ابو بكر وعمر وأبو عبيدة يرون ان هذا الامر يجب ان يترك لأقدرهم عليه من القرشيين ، ولئلا تكون رئاسة الدولة في فئة قليلة هي بيت الرسول فيجمع آل هاشم بين الرسالة والرئاسة ، وفي سقيفة بني ساعدة حيث كان الانصار يرون أهليتهم لهذا الشأن لأنهم هم الذين نصروا الاسلام ، ويختلفون في أيهم يتولاها ، أهو رجل من الأوس أم من الخزرج ، وبدأت المنافسات القديمة تنبعث الى السطح بعد ان دفنها الاسلام ، واشتد الخلاف بين القبيلتين – الى هنالك ذهب ابو بكر وعمر وأبو عبيدة وهم يخشون ان يفلت امر الدولة من ايدي المهاجرين السابقين ، وهنا ايضاً تطور النقاش بين الانصار والمهاجرين . فالمهاجرون يدعون انهم هم الامراء والأنصار الوزراء ، ويقولون بأن العرب لن تدين لبيت من بيوت العرب إلا لقريش حيث الزعامة القديمة. والأنصار يحاورون ويداورون ويقولون منكم امير ومنا امير وظهر ضعف هذا الرأي حتى في صفوف الانصار ، وأراد ابو بكر ان ينهي الخلاف فرشح عمر للخلافة ، فرفض عمر ورشح ابا بكر وثناه ابو عبيدة ثم بايعا ، وبايع الخزرج اذ كانوا يخشون أن تؤول الخلافة الى الأوس دونهم فتعلو سطوتهم وسرعان ما بايع بقية الناس إذ كان ابو بكر اكثرهم صحبة للنبي ، ووزيره المقرب الذي يساره ويعرف من أمر سياسة الدولة ما خفي على الآخرين ، ولم يتخلف عن البيعة

إلا علي بن ابي طالب ، وكان هـذا اول صدع في الاسلام إذ تخلف رجل له مكانته عن قرار الامة .

وبينما المهاجرون والأنصار في خلافهم الدستوري هذا ، انفض كثير من أعراب الجزيرة من حول سلطة المدينة ، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين محمد اعتقاداً منهم أنه كان بين قوم ونبي لا بين رعية ووالٍ : ومن هنـــا ظهرت الردة التي كانت أكبر عقبة في سبيل الوالي الجديـد أبي بكر الصديق ويبدو جلياً ان الاعراب في باديتهم لم ينظروا الى الزكاة على أنهـا ركن من اركان الدين ولكنهم حسبوهـــا من قوانين الدولة ولذلك فقـد رفضوا ان يدفعوا شيئاً بعد أن مات النبي (ص) .

لم يعين النبي خليفة بعده لا تصريحاً ولا تلميحاً حتى تدين له العرب وتبايع فشجع هذا ظن الأعراب على أن امر الإسلام قد انتهى بانتهاء الرسول ، بل ذهب بعضهم الى أبعد من ذلك فرأى أن يدعي النبوة عـــله يجد من ذلك منصباً عظيما كما وجد محمد، ويبدو من محاولاتهم هذه أنهم كانوا ابعد مايكون عن الطريق التي سلكهـا الرسول (ص). فبينما كان هو يؤسس دولة ، ويؤمن بقاع الجزيرة العربية ، لجأ هؤلاء المتنبئون الى الفوضى وحياة السلب والنهب والقتل فجمعوا الجموع ليغيروا بها على بعضهم بعضاً، ولذلك لم تقم لهم دولة ، ولم يقدروا على مواجهة جيوش الدولة الاسلامية التي كانت متينة القيادة.

وهكذا وجد الخليفة الاول الدولة الاسلامية الفتية ، وكان عليه ان يعيد الأعراب الى الخضوع ، وأن يقوي مركز المدينة في الجزيرة حتى لا يضيع ما فعل الرسول (ص) .

وكانت المدينة على حال سيئة من الضعف في قواتها الحربية والمعنوية اذ ان

كثيراً من الرجال أرسلوا في بعث أسامة بن زيد الذي جهزه النبي وكان يزمع ارساله الى مشارف الشام حيث قتل والده من قبل في اول صدام بين المسلمين والروم في واقعة مؤتة . وعارض كبار الصحابة هذه الحملة العسكرية مبينين خطر ذلك على المدينة اذ سيغري الأعراب على الإغارة على المدينة .

ولكن ابا بكر أصر على ارسال الجيش الذي تغيب اربعين يوماً استطاع في اثنائها ان يخضع قبائل قضاعة ثم يعود غانماً الى المدينة .

ولما رجع جند أسامة خرج ابو بكر يقود المسلمين . فأخضع قبيلتي عبس وذبيان اللتين كانتا تعدان العدة للهجوم على المدينة ، ثم عاد الى عاصمته ومنها ارسل قواده الى سائر بقاع الجزيرة لاخضاع المارقين في شتاء سنة ٦٣٢ ، فأخرج خالد بن الوليد الى طليحة بن خويلد الاسدي ومالك بن نويرة، وبعث عكرمة بن ابي جهل لمسيلمة باليمامة وأعانه بشرحبيل بن حسنة ، واوفد المهاجر بن ابي امية الى الاسود العنسي بصنعاء ، ووجه حذيفة بن محصن الى عمان ، وخالد بن سعيد الى مشارف الشام ، وغيرهم من القواد الى جهات مختلفة من بلاد العرب في حروب عرفت بحروب الردة . وكان خالد بطل هذه الوقائع وقد امره كما امر غيره من القواد ان يتقي الله ما استطاع في امره ومجاهدة المرتدين بعد ان يدعوهم الى الاسلام مرة اخرى ، ولا يحاربهم إن اقروا باسلامهم . والتقى خالد بجموع طليحة إلا انهم انهزموا ، وتاب طليحة بعد ان ادعى النبوة . ثم توجه خالد الى بني تميم وزعيمهم مالك بن نويرة ، فأسره ثم قتله وتزوج امرأته ، فأغضب ذلك عمر عليه إذ رأى ان في سيف خالد رهقا ، وكلم ابا بكر في ذلك فحقق مع خالد ثم وجهه الى اليمامة حيث تمكن خالد من قتل مسيلمة واخضاع بني حنفية بعد معركة عظيمة فقد خالد فيها كثيراً من حفاظ القرآن .

وثار المسلمون في اليمن على الاسود العنسي الذي كانت دعـواه للنبوة في اخريات ايام الرسول (ص) وقد اهدر النبي دمه ، ولم تصل انباء اغتياله الى المدينة الا في خلافة ابي بكر .

وفي اقل من تسعة اشهر اي قبل انتهاء السنة الحادية عشرة للهجرة كان ابو بكر قـــد استطاع ان يخضع كل الجزيرة العربية مرة ثانية الى السلطة الاسلامية .



٨

الفتوح والتوسع

كانت موارد الرزق في الجزيرة محدودة جداً ، كما ان عدد السكان بالنسبة لهذه الموارد كثير لا تحتمله الدولة . وكان هناك خوف من أن يعود الأعراب مرة ثانية الى حياة السلب والنهب . وكانت للمسلمين رسالة فوق هذه المطالب الحيوية إذ انهم امروا بأن يبشروا بالدين ، وأن يدعوا الى الدين الاسلامي الناس كافة فان النبي (ص) ارسل من قبل كتبه الى كسرى الفرس ، وقيصر الروم ، ومقوقس مصر ونجاشي الحبشة يدعوهم فيها الى الاسلام . وكان على الدولة الاسلامية ان تفسح الطريق لدعوتها الدينية بتحطيم السلطات او الحكومات التي تعارض في حرية الاديان ، فتوجه المسلمون لذلك الى محاربة الدول التي لم تجبهم الى رغبتهم . وكانت اهم هذه الدول هي الفرس والروم أما الحبشة فإن غزوها يحتاج الى اسطول لينقل الجنود ، ويساعد في ارسال المدد ، كما ان ملكها كان يسمح لغير المسيحيين بالاقامة تحت رعايته كما حدث

في هجرة المسلمين الأولى ، ولأن صلتـــه برئيس الدولة الاسلامية كانت قوية الصداقة ، كما كانت الحبشة بمنأى عن طريق المدنية والحضارات العريقة ذات التجارة الزاهرة . ولهذه الاسباب مجتمعـــة نظر المسلمون الى ناحيتي الروم والفرس .

الروم :

كانت دولة الروم قد فرضت سلطتها على الغساسنة والقبائل العربية المتاخمة لحدودها ، واستطاع رهبان الروم أن يضموا هؤلاء العرب تحت لواء المسيحية فأصبحوا خاضعين سياسياً الى قيصر ، ودينياً الى مطران القسطنطينية وكانوا بمثابة الدرع الحصينة لدولة الروم في الشام من اعتداءات عرب الصحراء وكان امبراطور الروم يدفع إعانات مالية لزعماء هؤلاء العرب ، ومرتبات لملوكهم على انهم موظفون عنـــده ، إلا ان الحروب الكثيرة التي قامت بين الروم والفرس من ٥٢٨ الى ٦٢٨ م أضعفت موارد الامبراطورية . وبالرغم من الضرائب الفاحشة التي كانت تدفعها رعية الروم إلا ان الامبراطور لم يستطع ان يستمر في دفع تلك الهبات للعرب ليأمن خضوعهم له . وزيادة على ذلك فان الديانـة المسيحية اخـــذت تنقسم على نفسها فانشقت سوريا ومصر عن القسطنطينية وأخذ الروم يضطهدون من خالفهم في الدين خصوصاً في القرنين السادس والسابع للميلاد ، وهكذا فقدت دولة الروم الشرقية صداقة العرب المسيحيين في الشام وولاء المصريين الذين انهكتهم فداحـة الضرائب التي كانوا يدفعونها للروم والاضطهاد الديني الذي كان ينالهم من أباطرة القسطنطينية .

فارس :

وكما ضعف مركز الروم لحروبهـــا مع الفرس ، كذلك ضعفت فارس من

هذه الحروب التي دامت مدى قرن بينها وبين الروم ، وكانت أشد هذه تأثيراً على الدولة الفارسية هي الحروب الأخيرة بين سنة ٦٠٢ و ٦٢٨ م إذ استطاع كسرى الفرس أن يفتح جزءاً كبيراً من الشام، واستولى على الصليب المقدس ثم عاد الى قاعدة ملكه ، ولكن ما لبث هرقل – قيصر الروم – ان هاجم الفرس في بلادهم وهزمهم شر هزيمة ، واسترد الصليب المقدس وعاد الى بلاده ، وقد كلفته الحرب كثيراً من المال والرجال والعتاد .

وبالرغم من ان الامبراطورية الفارسية كانت موحدة اذ لم تشتمل حدودها على غير الفارسيين مع عدد من العرب الخاضعين لها ممن يسكن الحيرة إلا انها كانت قد شارفت الزوال ، وذلك لأن مركز الأسرة الساسانية المالكة اخذ يتزعزع بسبب الاضطرابات والثورات الداخلية، وبدأت تظهر في الامبراطورية مذاهب دينية مختلفة كمذهب مزدك والمانوية والمسيحية فاختلط الامر على الحكام فاذا بهم يضطهدون من خالفهم في دين زرادشت وكثر الاضطهاد واشتد حتى ضج الناس منه ، وكان الناس يشكون فداحة الضرائب التي أوجبتها الحروب الرومية الفارسية الطويلة ؛ فكانوا على استعداد للانسلاخ من الحكم الساساني .

وظهرت الدولة الإسلامية في هذا الوقت وقد نظموا صفوفهم إذ نجح أبو بكر في توحيد العرب مرة اخرى ، وكان ظاهراً ان تعداد السكان في الجزيرة اكثر مما تتحمله أرضها الجرداء ومراعيها التي لا تكفي، وكان الضغط من حيث السكان في جنوب الجزيرة (اليمن) شديداً إذ انهم منذ قديم الزمان وهم يهاجرون الى شمال الجزيرة كما حدث بعد انهدام سد مأرب. وكان على الخليفة أبي بكر ان يواجه هذا الموقف ، فرأى أن أسلم طريق لتفادي الفوضى والاغارات الداخلية هو توجيه هذا الفائض من الرجال لإزالة سلطان

الدول المجاورة ، ونشر الدين لمن يريده ، وايجاد ارزاق من استعمار البلاد المفتوحة فتقسم الاراضي ، ويرتفع مستوى معيشة العرب .

وللنبي صلى الله عليه وسلم اليد الطولى في جعل السبيل لهذه الفتوحات ممهداً اذ انه ارسل الكتب الى الملوك يدعو فيها الى الاسلام ، او دفع الجزية ، فإن لم يدفعوا فعلى دولة الاسلام أن ترغم هذه الحكومات على الرضوخ لسلطانها ؛ ولهذه الأسباب المتعددة أخذ الاسلام يخرج من محيطه الضيق بالجزيرة العربية الى خارجها ؛ وتوالت الجيوش الاسلامية تحارب في جهتين مختلفتين في وقت واحد إحداهما على حدود فارس ، والاخرى على حدود الروم .

الجبهة الفارسية

٦٣٤ م

عندما انتهى خالد بن الوليد من حروب الردة أمره ابو بكر بالمسير الى حدود فارس وأن يبدأ هجومه من ثغر الأُبلة التي كانت المنفذ المؤدي الى الطريق التجاري بين الهند وبلاد العرب ، وكان خالد في ذلك الوقت باليمامة .

وأمر ابو بكر قائداً آخر هو عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال مبتدئاً بالمصيخ . وكان يساعد خالد بن الوليد في هجومه هذا المثنى بن حارثة الشيباني من قبيلة بكر بن وائل التي تسكن في أطراف العراق . وكان المثنى ممن أسلم واستأذن أبا بكر الصديق في مناوشة الفرس قبل إرسال خالد .

واستطاع خالد أن يوالي فتوحاته من جنوب العراق حتى فتح الحيرة وأرغم أهلها على دفع الجزية ؛ ثم سار الى الشمال ليمد يد المعونة لعياض الذي

صعب عليه أمر الفرس في دومة الجندل وقد حوصر ، فلحق به خالد بعد أن استولى على الأنبار ، ولم تلبث دومة الجندل أن سقطت أيضاً في ايدي العرب ، وتابع زحفه شمالاً حتى بلغ الحدود الفارسية الرومية بين العراق والشام فقفل راجعاً إلى الحيرة في ٥ ذي القعدة سنة ١٢ هـ . وأمر جيشه بالمسير الى الحيرة ، وتسلل خفية الى مكة حيث قضى مناسك الحج، ولحق بعد ذلك بجنوده في العراق فلما علم أبو بكر بذلك عنفه أشد التعنيف لتخلفه عن القيادة والفرس متربصون ، ثم أمره بعد ذلك ان يتوجه بجيوشه الى الشام حيث كاد المسلمون ان يلتحموا بالروم . وكانت المدة التي قضاها خالد في فتوحاته بالعراق تبلغ سنة وشهرين إذ ابتدأت من المحرم سنة ١٢ هـ وانتهت في صفر ١٣ هـ وفي كل المواقع التي اشترك فيها ضد الفرس لم يهزم مطلقاً ، وأصبح لكثرة وقائعه ذا خبرة حربية فائقة .

ذهب خالد الى الشام بعد ان ترك أمر بلاد الفرس المفتوحة الى المثنى بن حارثة الشيباني الذي اوكل اليه امر الدفاع عن هذه الأماكن بعدد قليل من العرب الذين اسلموا وكانوا بالقرب من الحيرة وأخذ خالد معه عدداً كبيراً من الجند يقدر بعشرة آلاف رجل ، ولم يترك للمثنى إلا مثل هذا العدد ، ومع ذلك فقد استمر المثني في التقدم قليلا وحارب الفرس في بابل وهزمهم ورأى ان فتح فارس قريب إن وجد الجند ، فذهب الى ابي بكر في المدينة ليستأذنه في استعمال من حسنت توبته من العرب وآمن بعد الردة . وبلغ المثنى المدينة وابو بكر على فراش الموت ، إلا ان الخليفة الاول اوصى عمر بأن يرسل مع المثني جند خالد بن الوليد متى انتهوا من حرب الروم بالشام . ومات ابو بكر وتولى عمر وأخرج رجالاً كثيرين مع المثنى وولى عليهم ابا عبيد بن مسعود الثقفي لتولي إمارة الجيش في قتال الفرس .

التقى المسلمون تحت قيادة ابي عبيد بالفرس في عدة مواقع كانت واقعة الجسر آخرها ، وفي هذه الموقعة عبر المسلمون الفرات وقاتلهم الفرس ، واشتدوا على المسلمين فهزموهم شر هزيمة وأوقعوا بهم حتى فر الجيش، وكانت كارثة فادحة ، وقتل ابو عبيد في الموقعة ، وتولى المثني امر الناس ، وعمر يرسل إليه الامداد وهو يوالي المناوشات للفرس دون أن يسجل نصراً مبيناً ، واشتدت مقاومة الفرس للعرب حتى دحروهم خارج الحدود بالقرب من صحراء العرب ، وفي هذه الاثناء مات المثني متأثراً بجراحه بينما كان عمر يحشد الجنود في المدينة حتى اذا عبأ الجيش ارسله تحت قيادة سعد بن ابي وقاص .

وكان ملك الفرس في هذا الوقت يزدجرد الثالث ، وقائده الاعلى رستم وقد جهز جيشاً كثيفاً يفوق جيش المسلمين عدداً . والتحم الجيشان في القادسية ، وانتهت المعركة بعد قتال دام ثلاثة أيام بهزيمة الفرس في اول يوليو سنة ٦٣٧ م ، وبهذه الهزيمة أصبحت اراضي ما بين النهرين مفتوحة امام المسلمين . واستمر سعد في تقدمه بعد ذلك ، وبعد شهرين من القادسية (صفر سنة ١٦ هـ) عبر دجلة ودخل المدائن عاصمة فارس التي أخلاها يزدجرد ومن تبعه من الفرس في اواخر سنة ٦٣٧ ، وبدخول الفاتحين العرب عاصمة الفرس أصبح من السهل عليهم الآن ان يوالوا فتوحاتهم ليهزموا بقية فلول الفرس .

وفي جلولاء (اواخر سنة ٦٣٧) تحصن الفرس وجمعوا الجند مرة اخرى لملاقاة العرب، وأمر عمر سعداً ان يرسل تجريده بقيادة هاشم بن عتبة الى جلولاء، وهنالك انهزم ايضاً الفرس وفر كسرى الى حلوان ثم الى الري ، وأمر عمر العرب بإيقاف الفتح بعد ذلك لبعد الشقة بين المدينة وبين الحدود حرصاً على سلامة المسلمين والدولة . ومع ذلك فقد توالت الفتوحات في

الاماكن القريبة من مرابط العرب مثل تكريت في شمال العراق ، ولاسبذان التي فتحها ضرار بن الخطاب ، وفتحت ايضاً قرقيساء وفي نهاية سنة ٦٣٧ اصطدم العرب لآخر مرة بجموع الفرس في واقعة نهاوند التي انتهت بهزيمة الفرس نهائياً ، ولذلك سميت نهاوند بفتح الفتوح ، وتم بعدها إخضاع البلاد القريبة الاخرى .

الجبهة الرومية :

جمع أبو بكر جيشاً آخر وقسمه الى اربعة ألوية على كل لواء قائد من المسلمين ، فأرسل أبا عبيدة بن الجراح الى حمص ، وعمرو ابن العاص الى فلسطين ، ويزيد بن أبي سفيان الى دمشق ، وشرحبيل بن حسنة الى وادي الاردن وذلك في ابريل سنة ٦٣٤ م .

وعلم هرقل – امبراطور الروم – بمسير العرب الى بلاد الشام فجهز جيشاً كبيراً يفوق عدد الجنود العربية ، وعزم على لقاء المسلمين – كل قائد على حدة حتى يحيق بهم الدمار . فأرسل ابو بكر الى خالد بالعراق يأمره ان يتوجه بنصف من معه من الجنود الى الشام ، فوصل خالد وتحت قيادته ١٠٫٠٠٠ ، وقد عينه الخليفة على كل قوات الاسلام ، وأمر كل الجيوش بالاجتماع في اليرموك .

وانتهت واقعة اليرموك حيث التقى الجيشان بانتصار العرب على الروم في أغسطس سنة ٦٣٤ م ، وضعفت بعدها شوكة الروم ، وفي اثناء المعركة جاء البريد من المدينة ينقل خبر وفاة أبي بكر ، وتعيين عمر بن الخطاب الذي أمر بعزل خالد من القيادة العامة ، وتعيين أبي عبيدة قائداً أعلى للجيش . ثم توجه الجند المسلمون الى دمشق التي سلمت بعد حصار سبعين يوماً وذلك في يناير سنة ٦٣٥ (أواخر ١٣ هـ) : ثم سقطت حمص وحماة وقنسرين واللاذقية

وحلب وبقية فلسطين . وبعد ان تغلب عمرو بن العاص على أرطبون الرومي استولى على يافا ونابلس وعسقلان وغزة والرملة واللـد وعكا ، ثم حوصرت بيت المقدس وطلبت التسليم الى عمر بن الخطاب نفسه فقدم الخليفة من المدينة واستلمها وكتب أمانـاً لسكانها على اموالهم ، وأنفسهم وكنائسهم وأديرتهم ، وكان ذلك في يناير سنة ٦٣٧ م . وهكذا تم للعرب الاستيلاء على بلاد الشام من ايدي الروم بعـد ان خسروا عدداً من الرجال يقـدر بخمسة وعشرين الف شهيد .

فتح مصر :

اتصل عمرو بن العاص بعمر بن الخطاب ليسمح له بفتح مصر ، وهون عليه امرها لأنـه كان يعرف مدى كراهية المصريين للروم الذين استغلوهم أسوأ استغلال ، فقد كانوا يأخذون الغلال وغيرها من المحصولات الزراعية لبلادهم ، وألزموا المصريين على الزراعة واستولوا على الوظائف الكبيرة في البلاد ، وكان الروم يضطهدون المصريين لاختلاف كنيستهم عن الكنيسة البيزنطية ، وسئم المصريون حكم الرومان لفداحة الضرائب الموضوعة عليهم ، فقد كانوا يدفعون ضرائب على كثير من الاشياء بما في ذلك ضريبة دفن الموتى ، وأثرت امثال هذه المعاملات تأثيراً سيئاً في نفوس المصريين .

وخشى عمرو بن العاص من محاولة الروم القيام بهجوم منظم او اغـارات غير منتظمة على بـلاد الشام من جهـة الجنوب جاعلين مصر مركزاً لذلك الهجوم يساعده هجوم مماثل من جهة الشمال جنوبي آسيا الصغرى ، لذلك كان من الافضل ان يؤمن المسلمون حدود الشام الجنوبية . وعرف المسلمون ايضاً أهمية مصر كمورد للرزق ، ومصدر للحاصلات الزراعية ، فهي أغنى بلاد العالم

في ذلك العصر ، والعرب أحوج ما يكون الى الغذاء والثروة وكان عمرو يحلم ايضاً بأن يصبح والياً على مصر إذ كان يتعشقها منذ ايام تجارته في الجاهلية .

وفي ديسمبر من سنة ٦٣٩ سمح عمر بن الخطاب لعمرو بفتح مصر بعد ان جهزه بأربعة آلاف من جنود اليمن ، فدخل عمرو الحـدود واستولى على العريش والفرما ووصلته امداد بأربعـة آلاف آخرين ففتح حصن بابليون ، ودحر جنود الروم ، ثم حـاصر الاسكندرية وسقطت في ايدي العرب سنة ٦٤٢ م .



٩

السياسة الداخلية

الخلافة ـــ التنظيم الاداري

الخلافة :

ترك موت الرسول (ص) ازمة دستورية خطيرة إذ لم يعرف المسلمون مـا يفعلون ، وانتهت تلك الازمـــة بانتخاب ابي بكر ومبايعته في سقيفة بني ساعدة . وكان جلياً ان الذين انتخبوا ابا بكر هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار . وكان لمبايعتهم له التئام للصدع الذي كاد يحيق بالاسلام كدولة كما انه ثبت الزعامة في المدينة دون غيرها من الجزيرة ، وثبت زعامة قريش على العرب .

ولم يكن ابو بكر كالنبي (ص) يستمد بعض قوتـه من الوحي ، ولكن

كان عليه الاقتداء بالرسول والسير بالكتاب والسنة ما استطاع ذلك، واطلق عليه خليفة لأنه خلف النبي (ص) فهو لذلك خليفة رسول الله (ص) .

ورأى ابو بكر تلك المحنة التي قابلها الاسلام قبل اختياره ، فخشي ان يتكرر الصدع ولذلك فقد اختار للناس خليفة قبل وفاتـه ليتولى الامر من بعده ، وامر الناس بأن يسمعوا ويطيعوا له . وترى انه استشار المقربين لديه من ذوي السابقة في الاسلام ؛ والرأي الصائب ، والجراءة في ابـداء رأيهم . وقـد انتقد بعضهم عمر لأنه يقسو على الناس إلا أن ابا بكر دفع ذلك بقوله ان قسوة عمر نتيجة للين ابي بكر ؛ وتم اختياره . ومما هو جدير بالذكر ان ابا بكر لم يختر للخلافة احداً من اقربائه او عصبيته ، بل جعل الامر لرجل لا يمت إليه بنسب ، كما انه لم يجعل الخلافة في بيت النبوة . وسمي عمر اول الامر بخليفة خليفة رسول الله ، ولكنه خشي التكرار فاقتصر على خليفة ، وأطلق على نفسه « امير المؤمنين » ، والامير هو القائد للجيش ، فكأنما عمر قائد المسلمين . ويظهر لنـا في هذه التسمية اثر الحروبات التي كانت في عهد عمر في الألقاب .

فلما حانت منية عمر بن الخطاب فكر في ان يولي خليفة بعـده ، ورأى ان الذين يستحقون الخلافة بعده اكثر من رجل واحد ، لذلك اختار ستة من الصحابة هم : عثمان بن عفان ، وعلي بن ابي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن ابي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، ثم دعـا ابنه عبد الله بن عمر كمستشار لا حق له في الخلافة وان كان له حق التصويت. وانتهى الامر باختيار عثمان بن عفان، وكان منافسه الوحيد علي ابن ابي طالب وهنا ايضاً حسم الخلاف القديم بين آل امية وآل هاشم .

على ان عثمان لم يرض اهل الامصار بسياسته ، وانتقدها كثير من الصحابة حتى تفاقم الامر ، وانتهى بقتله واختيار علي بن ابي طالب . وكان الثوار هم الذين اختاروا علياً ، ولذا فيمكننا ان نسمي حكومة علي بحكومة الثورة والثوار الذين قاوموا طريقة عثمان في الحكم وسياسته ، وأرادوا ان يرجعوا بها الى سياسة العهود الاولى . وفي ذلك الوقت كان عدد الصحابة بالمدينة قليلاً يتزعمهم طلحة والزبير ، وتردد في بيعة علي جماعة منهم سعد بن ابي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، كما انضم حزب بني امية الى معاوية في الشام .

ومن هذه الطرق المختلفة نرى ان اختيار أبي بكر كان اكثر ديمقراطية من غيره ، اذ اجتمع الصحابة من انصار ومهاجرين ، وتعدد المرشحون وكثر الكلام حولهم حتى تم الاتفاق اخيراً على ابي بكر . وكان الحاضرون بطبيعة الحال لا يمثلون كل عرب الجزيرة ولكنهم يمثلون دولة الاسلام بالمدينة ، فهم الذين اقاموها وما كان من الممكن اشراك غيرهم في الامر لأن اكثر الجزيرة العربية خرج عنهم وعرفوا بالمرتدين .

واختيار ابي بكر لعمر هو تعيين بعد استشارة ، فكأنما جعل ابو بكر اختيار الخليفة من حقه بعد استشارة وزرائه من الصحابة . وخطورة هذه الطريقة ظهرت فيما بعد في العصر الاموي وما بعده حين اصبح الخليفة يولي ابنه بعده ، فأصبحت الخلافة وراثية في الواقع ، انتخابية في الظاهر .

التنظيم الاداري

لم يكن العرب يعرفون شيئاً عن ادارة بلاد واسعة قبل ان ينتشر الاسلام ، فقد كانت معرفتهم بالادارة قاصرة على القبيلة وادارتها التي تكون

في يد الرئيس وشيوخها . وكان زعيم القبيلة هو الذي يقود افرادها في القتال وغيره ، ولكنه لم يكن مشرعاً قانونياً ؛ اوله سلطة قانونية على القبيلة .

ولما استقر الاسلام في الجزيرة كان محمد (ص) هو الذي يوضح للناس الشرع ، وهو الذي يأمرهم ويقودهم في السلم والحرب .

وكانت له السلطة المطلقة في ايفاد امراء السرايا والبعوث المختلفة للقبائل فلما اتسعت رقعة الاسلام في اخريات ايامه اخذ يعين عماله على البقاع المختلفة ويجعل بعضهم على الصلاة واقامة الحدود ، وبعضهم على الزكاة .

وكذلك فعل ابو بكر الصديق. غير انه حتى ذلك الوقت لم يكن للعرب سلطان خارج حدود الجزيرة العربية ، ومع ذلك فقد كان يرسل القائد الى مكان ما ويوليه على تلك البقعة قبل افتتاحها ، وهذا ما نراه يحدث عندما بعث خالد الى العراق وفارس ، والامراء الآخرين كأبي عبيدة وعمرو بن العاص وغيرهم .

ثم كانت خلافة عمر بن الخطاب حيث اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وأخضعت بلاد جديدة سكانها من غير العرب ، ولها أديان مختلفة وعادات وقوانين متباينة ، وهكذا نرى أن عمر قد واجه مشكلات جديدة عليه ان يجد لها حلاً . وكان اول ما فعله عمر هو ان قسم البلاد المفتوحة الى ولايات: ثم عين اميراً على كل ولاية ولهذا الامير قيادة الجيش ، ثم جعل لكل وال مرتباً يأخذه من بيت مال المسلمين ، وكان ان وجه عمار بن ياسر اميراً على الكوفة وإماماً على الصلاة وقائداً للجيش ، ودفع له ستمائة درهم في الشهر ، كما عين القضاة ايضاً والكتاب والمؤذنين ووهبهم مرتبات فكان يدفع لبعضهم ربع شاة في اليوم وخمسة دراهم مع مكافأة سنوية قدرها خمسة آلاف درهم.

وعين معاوية على الشام بمرتب قدره ألف درهم في العام .

وفصل عمر بين الأدارة والمالية اذ عين رجالاً آخرين على جباية الخراج وكانت لا تربطهم رابطة بالامير او الوالي ، ولكن يسألون أمام الخليفة مباشرة ومن هنا امتنع الفساد في الحكم وصَرف المال بغير حق ، إلا ان المنازعات بين رجل الادارة ووالي الخراج كانت كثيراً ما تشتد بعد خلافة عمر .

وكان عمر يولي عماله من العرب ، ولم يخص قريشاً بفضل عن سائر القبائل العربية بل ولىّ كل من رآه كفؤاً سواء أكان مصرياً أم يمنياً .

وكان عمر يمنع اختلاط العرب بغيرهم من الأمم حتى يحفظ لهم قوميتهم ودينهم وأخلاقهم التي وهبها لهم الدين الاسلامي .

خشي عمر من هجوم الفرس والروم ولذلك فقد عين المراكز التي تتخذ قواعد للدولة الاسلامية في البلاد المفتوحة؛ فهو قد أمر ببناء الكوفة والبصرة لتكون في الحدود بين الجزيرة العربية وبلاد فارس فيسهل الهجوم او الدفاع عن البلاد ، وجعل دمشق قصبة الشام ، وأمر بتأسيس الفسطاط في مصر حتى يتمكن العرب من حماية امبراطوريتهم والاتصال الدائم بالمدينة مقر الخلافة .

ولما تم الفتح في كثير من البلاد جعلت اراضي الدولة المهزومة ملكاً للمسلمين والفاتحين منهم ، فرأى العرب ذلك وكان قد استقر بهم المقام بعد هدوء الحالة بعض الشيء ، وسكنوا في المدن وقل دخلهم لعدم وجود الاخماس التي كانت تصرف عليهم من الغنائم ، فرأوا ان يزرعوا . وهنا خشي عمر ان ينقلب الجنود الى زارعين فينتهي أمر الجيش، لذا نرى انه وضع

مرتبات مستديمة للجنود ولأهلهم ، ولذلك استطـاع ان يوجد لدولة الاسلام جيشاً دائماً .

وعمر هو اول من كان يحصي أموال عماله قبل ان يوليهم عمـلا ، ثم اذا انتهت مدتهم أعاد احصاء اموالهم فإن وجدهـا زادت زيادة مريبة قاسمهم ذلك وأدخـله في حساب بيت المال ؛ وقد فعل ذلك مع معاوية وعمرو بن العاص حين ساورته الشكوك في ثرائهم الفاحش .



١٠

الانقسامات الداخلية

الفتنة الكبرى

من أهم الرسالات التي جاء بها الاسلام المساواة بين الناس والعدل بينهم ، وكانت هذه السياسة هي الاساس الذي حكم به النبي (ص) ومن بعده خليفته ابو بكر ثم عمر ، وهذا هو المبدأ الذي بايع الناس عليه عثمان بن عفان ، فوعدهم بأن يسير تلك السيرة العادلة في الرعية ، وكان عمر يخشى ان يفرط عثمان في شيء من تلك الأسس فحذره من ان يحمل آل ابي معيط وبني امية على رقاب الناس ، وكان هؤلاء النفر من قريش هم اهل عثمان بن عفان . وكذلك حذر عمر علي بن ابي طالب من حمل آل هاشم على رقاب الناس إن آلت اليه الخلافة وقد كان هذان الرجلان من ذوي العصبيات القوية في قريش .

ترك عمر لعثمان امبراطورية كبيرة تفاقمت مشكلاتها وتكاد تستعصي على رجل غير عمر الذي كان يمتـــاز بعبقرية ادارية نادرة المثـــال ، وهو الذي استطاع ان ينتقل بدولة الاسلام من عهد البداوة الى نور الحضارة ، ويؤسس اركان الدولة سياسياً وإدارياً ومالياً وإجتماعياً .

ومنذ الفتوحات في حكم عمر والمشكلات تزداد،فقد كان الرعايا ينقسمون الى شعب ، منهم المهـاجرون السابقون ، ومنهم الانصـار ، ثم العرب الذين فتحوا البلاد ، وأصحاب البلاد المفتوحة ممن اعتنق الاسلام ، وأولئك الذين قبلوا ان يدفعوا الجزية ويصبحوا ذميين . وكان لكل من هذه الشعوب رأي خاص في الشعوب الاخرى .

لم تقف المشكلات الى هذا الحد عند وفاة عمر ، بل وجـد عثمان نفسه إزاء محنة جديدة اول توليته ؛ فقد قتل ابو لؤلؤة المجوسي عمر بن الخطـاب وهو في الصلاة ولما رأى القوم يريدون أخذه طعن نفسه بالخنجر الذي طعن به عمر وفارق الحياة . وذكر عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق انـه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان الفارسي وجفينة يتحدثون قبيل مقتل عمر، فلما مرّ بهم عبد الرحمن رأى ذلك الخنجر ذا الحدين يقع من بين ايديهم . وسمع بهذا الخبر عبيدالله بن عمر بن الخطاب فأخذ سيفه وذهب فقتل الهرمزان ثم قتل جفينة، وعرج على ابنة ابي لؤلؤة فقتلها ايضـاً . كل ذلك وعثمان لم يكن قـد بويع بعـــد ، وكان يؤم المسلمين صهيب ويمسك أمن البلاد حتى تنتهي استشارات عبد الرحمن بن عوف ، فلمـــا سمع صهيب بما فعل عبيد الله ارسل اليه سعد ابن ابي وقـاص ، فأخذ السيف من عبيد الله ثم سجنه ريثما ينظر الخليفة في أمره متى تم اختياره ومبايعته .

فلما تولى عثمان الخلافة استشار الناس فيما يصنع بعبيد الله ، فكان من رأي بعضهم وفيهم علي بن أبي طالب أنه يقتل عبيد الله لأنه جاوز الحد فقتل الهرمزان وكان مسلماً ، وجفينة وهو نصراني ذمّي ، وبنت أبي لؤلؤة وهي مجوسية ذمية ، ولذا فكان لا بد من القود .

أما الجماعة الاخرى من القرشيين فقد كانوا يقولون : يقتل عمر أمس ، وابنه اليوم ! وكرهوا أن يقتاد من عبيد الله .

ورأى عثمان أنه ولي الهرمزان وكل من قتل عبيد الله ، ثم دفع ديات القتلى من ماله الخاص ، وأفرج عن عبيد الله . ولكن كثيراً من المؤمنين المتشددين لم يرض عن الطريقة التي قضى بها عثمان في هذه القضية لأنهم رأوا ان عثمان لم يقتص من عبيد الله كما يجب ، فهو لم يقتله على جرائمه ، ولم يحاسبه فيجعله يدفع الدية من ماله الخاص إن كان له مال ، أو يجمع الديات من بني عدي وهم اهل عبيد الله ، او يحبسه على فعله ، بل تركه ينطلق حراً كأنه لم يرتكب جرماً . وكان علي ومن يرى رأيه يخشون ان يظن الناس ان هناك فرقاً بين العربي وغير العربي وأن يسيء الناس فهم هذا اللين فتكثر مخالفات القوانين ، وأحزنهم ان يعطل عثمان حداً من حدود الله ، فكأنما خالف بذلك الشرع عمداً .

وحين تولى عثمان الخلافة زاد الناس في أعطياتهم مائة درهم لكل واحد ، وذلك بمجرد فراغه من قضية عبيد الله . وكان لهذه الزيادة اثرها في النفوس إذ كانت توسعة على المسلمين من فضول أموالهم التي كانت ببيت المسلمين ولم يكن المسلمون في حالة ضيق شديد في ذلك الوقت يستلزم هذه الزيادة اذ لم يطرأ أي تغيير في اسعار السلع في الفترة بين مقتل عمر وتولية عثمان . وحمد قوم

كثيرون لعثمان هذه الزيادة ، وعجب لها كثيرون وأنكرها كثير منهم اذ لم يروا ما يوجب الزيادة بين عشية وضحاها. وكان هذا الفريق من المسلمين يرى أن هذا خروج عن سياسة عمر التي تدعو الى الاقتصاد ولا تميل الى التبذير . وكانوا يعرفون ان عمر لم يكن مقتراً ، وان هذه الزيادة في الأعطيات ستجلب كثيراً من المشكلات بجانب فوائدها . وكأنما كان عثمان ينتقدسياسة عمر المالية فهو يعتقد ان عمر كان مقتراً فأراد هو ان يوسع على الناس . ومن الجلي ان عدداً كبيراً من عامة الناس حين وصلتهم هذه الزيادة حمدوها لعثمان ، وربما زادت مكانته في نفوسهم ، ويصح لنا ان نقول بأن عثمان أراد ان يتقرب الى قلوب الناس عن هذه الطريق ، ويمكننا كذلك ان نقول إنها البشرى لتوليته الخلافة وهو ما لم يفعله خليفة قبله .

خالف عثمان سيرة عمر في الناس كذلك حين سمح لكبار الصحابة بالخروج من المدينة والسياحة في الأمصار . وكان عمر قد منع كبار الصحابة من قريش ان يخرجوا الى الامصار خوفاً من الفتنة والتفرقة . كان عمر يرى ان عامة الناس إن وجدوا احد كبار الصحابة بين ظهرانيهم سيلتفون حوله يعظمونه ويبجلونه، ويتشيعون له، ومن هنا ستنشأ الأحزاب المتعددة متى كثر الزعماء. وهؤلاء الصحابة من السابقين الأولين من قريش ، وهم الامراء على الدولة ، فان ناصرهم أقوام كثيرون ربما حدثتهم انفسهم بالانقلاب على الخليفة لمكانتهم التي لا ينكرها عليهم احد ، او ربما تدافع الناس حولهم يتوقعون ان يكون الامر لهذا دون غيره من الزعماء . لهذه الاسباب منع عمر بن الخطاب هؤلاء المهاجرين من الذهاب الى الأمصار وحبسهم في المدينة . ولم يسمح لهم عمر أن يذهبوا غازين فاتحين مع جند الاسلام ، وكان يقول لهم ان غزواتهم مع النبي (ص) فيها الغناء عن غيرها من الجهاد .

عرف عثمان كما عرف غيره كثير من المسلمين ان المجاهدين من غير الصحابة قد أثروا كثيراً بما كسبوه من الفتوح ، ولكن الصحابة من قريش لم يصيبوا ما اصاب غيرهم ، وكان خليقاً ان يثروا اكثر من سائر المسلمين لمكانتهم في الدين والدولة والجهاد السابق : فأراد عثمان ان يوسع عليهم ما أمكنه ذلك . فترك لهم باب الهجرة الى الامصار مفتوحاً ، فولجوا الامصار يطلبون الرزق مما أفاء الله على المسلمين ، فكان من اثر ذلك ان خرج الزبير الى البصرة ، وطلحة الى الكوفة حتى كانت أخريات ايام عثمان فاذا بأهل البصرة يريدون الزبير خليفة ، ويرشح اهل الكوفة طلحة للخلافة .

لما مات عمر لم يكن قد عين في حياته رجلاً من بني عدي على مصر من الامصار ، بل كان كثير من عماله من غير القرشيين فقد كان على الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي ، وعلى البصرة أبو موسى الأشعري . وهو يمني ، وكان هذان المصران من اهم الامصار الاسلامية في ذلك الوقت لقربهما من بلاد فارس التي عرفت برقيها وحضارتها ، ولم تكن بلاد الفرس قد خضعت بعد للمسلمين وكان على الشام والاردن معاوية ، وعلى مصر عمرو بن العاص. وعلى فلسطين وحمص عمير بن سعد الانصاري .

وكان عمر قد اوصى الا يغير الخليفة الذي يليه عمال الامصار طيلة العام الأول . وفي ذلك سياسة حكيمة لأن هؤلاء العمال كانوا اعرف من غيرهم بسياسة الامصار ، فإن عزلوا عند تولية الخليفة اصبح الخليفة حديث عهد بمنصبه وكذلك عماله ، فلا تستقيم امور الدولة لقلة خبرتهم بها . وأوصى عمر كذلك بأن يولى سعد بن ابي وقاص عملاً في البصرة ان لم ينتخب خليفة لأنه من اكفاء المسلمين لذلك المصر ، فهو الذي هزم الفرس في القادسية وضم

كثيراً من بلادهم ، وعمل عثمان بوصية عمر فلم يفعل شيئاً من تولية وعزل للعمال طيلة عامه الاول ، ثم اخذ بعد ذلك يتصرف كما يشاء . فكان مما عمله انه عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولى عليها سعد بن ابي وقاص ، ثم ما لبث ان عزل سعداً حين اختلف سعد وعبد الله بن مسعود الذي كان عاملا للخراج وولى الوليد بن عقبة بن ابي معيط مكان سعد في الكوفة ، وكان الوليد من اقرباء عثمان المقربين إلا انه كان معوجاً في اخلاقه إذ كان يشرب الخمر وله رفقة سوء ، وكان كذابا حتى كذب على النبي (ص) ونزلت فيه الآية (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) . ولذلك فقد كان الفرق بينه وبين سعد في المكانة والكفاءة ظاهراً ومع ذلك فقد عينه عثمان . ثم ما لبث ان عزله حين ثار عليه اهل الكوفة اذ شوهد يشرب الخمر فحده عثمان وجلده .

ارسل عثمان سعيد بن العاص الأموي ، وكان شاباً عرف بالجهاد والروية ، ولكنه كان من اقارب عثمان ولا يمكن ان يعدل بسعد ، غير ان سعيداً سار في الناس سيرة حسنة ، وضيق على الناس الخناق ، واخذهم بالجد . فضاقوا به ذرعاً وطلبوا من عثمان ان يعزله ويولي عليهم ابا موسى الاشعري الذي كان عامل عثمان بالبصرة ، فاختاره عثمان لهم وعينه على الكوفة .

فلما نقل ابو موسى من البصرة الى الكوفة ولى عثمان على البصرة احد اقربائه وهو عبد الله بن عامر بن كريز . وكان ابن خال عثمان ، ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين . وعرف عبد الله بالكفاءة وحسن السيرة وقوة العزم فسار في مصره سيرة محمودة ، وشغل الناس بالجهاد والحرب ، الا ان المسلمين اخذوا على عثمان اختياره عاملا وهو صغير السن فانتقدوا تعيينه

لحداثة سنه ، ثم لقرابته من عثمان مع وجود الاكفاء من غير آل امية وأبي معيط . وكان عثمان يدافع عن هذا الامر بأنـه لم يرتكب جرماً اذ ان النبي صلى الله عليه وسلم عين اسامة بن زيد قائداً على جيش فيـه كبار الصحابة كأبي بكر وعمر ولم يكن قد تجاوز العشرين ، ثم اقر ابو بكر هـذا الامر من بعده . ولكن شتان مـا بين الأمرين اذ لم يكن اسامة من اقارب النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان معاوية بن ابي سفيان في الشام والأردن ، ما لبث عثمان ان ضم اليه فلسطين وحمص فمكن له في تلك البقاع واطلق يـده كما يشاء حتى قويت مكانة معاوية في الشام . وكان معاوية من اقارب عثمان ايضاً ، وكان من اكفأ امراء المسلمين إلا ان كثرة الامراء الامويين في البلاد بغضت عثمان للنفوس .

وفي مصر ، لم يشأ عثمان ان يترك عمرو بن العاص فعزله وعـين عبد الله ابن سعد بن ابي سرح ، وكان عبد الله اخا عثمان مـن الرضاع ، ولم يكن عبد الله شيئاً بجانب عمرو ، ولم تكن سيرته كسيرة سابقه . فقد زاد ابن ابي سرح الجزية والضرائب على المصريين حتى اثقـل كاهلهم ، ووصلت الاموال الكثيرة من مصر الى عثمان في المدينة ، فكلم عمرو بن العاص قائلاً له بـأن مصر قـد درت بعده فكثرت خيراتها كأنما يريد ان يشعر عمراً بأنه لم يكن موثوقاً بـه ، وأنه كان يأخذ تلك الاموال لنفسه ، ورد عليه عمرو بأن ابن ابي سرح انمـا اثقل كاهل الناس وعما قليل يضج المصريون من ذلك . وكان ابن ابي سرح من الذين آذوا النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية ولم يعتنق الدين الاسلامي إلا بعد فتح مكة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قـد اهدر دمه وتشفع له عثمان فقبلت شفاعته ، ولذلك فقد كان كثير من السابقين يرون ان امارة ابن ابي سرح خطأ جسيم .

وهكذا نرى ان سياسة عثمان في تولية العمال اسخطت الناس ، وجعلتهم ينقمون عليه حمل آل ابي معيط وبني امية على رقاب الناس ، وكأنما تحذير عمر بن الخطاب له لم يجد اذناً واعية .

لم ينقم جماعة من المسلمين على سياسة عثمان في الادارة فحسب بل نقموا عليه سياسته المالية ايضاً ، فقد قام ابو ذر الغفاري على رأس المعارضين لهذه السياسة فنراه يلوم عثمان لانه يعطي من بيت مال المسلمين للاغنياء من اقاربه ، فقد كان عثمان يهب لمروان بن الحكم واخيه الحارث آلاف الدراهم وهم في غير حاجة كبيرة اليه ، بل كانوا يكنزون هذا المال ، وكذلك انتقد هذه التصرفات حين رأى عثمان لا يأخذ للفقراء من الاغنياء ، فاذا بطبقة تثري ثراء فاحشاً والفقراء لا يجدون الرزق المناسب ، وحمل ابو ذر حملة شعواء على طبقة الاغنياء حين كان بالشام فجعل يقرأ في كل مكان « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » . فأخرج من الشام بأمر عثمان حين خاف معاوية على اهل الشام من دعوته ، فوصل الى المدينة وهناك استمر في دعوته هذه حتى ضج عثمان منه ، ويقال انه نفاه الى الرَّبذة حيث اقام وحيداً الى ان مات .

وكان من المعارضين لهذه السياسة ايضاً عبد الله بن مسعود الذي قال له عثمان حين اختلف ابن مسعود والوليد بن عقبة بعد ان امتنع عن دفع دين اخذه من بيت المال : « انما انت خازن لنا فلا تلح على الوليد » . وتميز ابن مسعود غيظاً لذلك وترك الولاية على مال الخراج ، وأصبح معارضاً لعثمان ذاكراً للناس ان عثمان قد أخطأ في سياسته المالية كما أخطأ في حرق القرآن. وكان عثمان قد خشي اختلاف القراءات في القرآن فجمع كل المصاحف في

الدولة ، وكلف زيد بن ثابت بكتابة القرآن ففعل ، ثم حرق بقية المصاحف وترك الذي كتبه زيد ، ثم وزعه على الامصار : وكان ابن مسعود يخالف عثمان في فعله ذلك ويقول بأنه بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. واشتدت معارضة ابن مسعود لعثمان حتى أمر عثمان به فضرب بالأرض حتى دقت أضلعه وما فتىء ساخطاً حتى مات .

وانبرى عمار بن ياسر ايضاً يعارض سياسة عثمان في بيت المـال ، وكان ان اخذ عثمان من بيت المال جوهراً لأهله وقال في المسجد: «لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وان ارغمت انوف اقوام » . فقال عمار : « أشهد الله ان انفي اول راغم » ، فأمر به عثمان فضرب حتى سقط مغشياً سحابة يومـه ، ومع ذلك استمر عمار في المعارضة مؤثراً سخط عثمان ورضا الله .

وفي مرة ثانية تزعم عمار حركة المعارضة ، فقـد كتب صحيفة وأشهد عليها جماعة من الصحابة من مهاجرين وأنصار ، وقدمها الى عثمان يلتمسون منه ان يغير من سياسته ، فغضب مروان بن الحكم من موقف عمار ، ثم دس له عند عثمان قائلاً له : « ان هذا العبد الاسود قد جرأ عليك الناس ، وانك ان قتلته نكلت به ومن وراءه» ثم أمر عثمان بضرب عمار فضرب حتى سقط مغشياً عليه .

وساء المسلمين كثيراً ان يعيد عثمان عمه الحكم بن العاص وبنيه الى المدينة وقد نفاه النبي (ص) منها حين رآه يتجسس عليه وعلى اهله وكانوا جيرانه ، وقال لا يساكنني في بلد مطلقاً . وكان الحكم من الطلقاء الذين اسلموا لما عز الإسلام ومع ذلك فقد كان يؤذي النبي (ص) بمثل تلك الافعال . وكان عثمان قد طلب من النبي أن يعفو عنه ويرده الى المدينة فأبى ، ثم طلب ذلك

من ابي بكر فعمر فلم يرضيا حتى اذا تولى الخلافة أعادهم وبرهم من بيت مـال المسلمين، وجعل مروان وزيراً له، والحارث بن الحكم والياً على سوق المدينة، فكان ما فعلاه مما زاد في الإساءة الى سياسة عثمان .

وكان الانصار بالمدينة غير راضين عن سياسة عثمان ايضاً كغيرهم من الناس ولكنهم لزموا الصبر فلم يعارضوه ولم يساندوه لأنهم لم يجدوا في عثمان مـا يشعرهم بأنه منهم وإليهم ، ولم يشركهم عثمان في امر بل اكتفى بأقاربه من بني امية وأبي معيط .

وأقـام محمد بن ابي بكر الصديق ومحمد بن ابي حذيفة حملة عنيفة على سياسة عثمان ، وذهبا الى مصر وهناك أشعلا النار في النفوس ، فهما يحرضان الناس على الجهاد ضد عثمان نفسه لأنه لم يسر في الناس سيرة يرتضيها المسلمون، وقد نجحا في الدعاية ضد عثمان الى حـد بعيد ، فسخط الناس على عثمان في مصر سخطاً كبيراً كما سخط عليه آخرون في الكوفة والبصرة .

ومحمد بن حذيفه شاب من بني عبد شمس اقرباء عثمان ، وكان عثمان قـد كفله لما مات ابوه يوم اليمامة ، وكان قد شرب الخمر مرة فحده عثمان ثم تاب محمد وحسنت توبته وعبادته ، وكان يأمل ان يوليه عثمان عملاً ، ثم لما لم يجد ذلك طلب الاذن بالخروج الى مصر، وطفق يعيب ابن ابي سرح ويحرض على عثمان ، وشكاه عبدالله الى عثمان ، فبعث اليه عثمان بثلاثين الف درهم ويحمل عليه كسوة ولامه على اقواله . فأخذ محمـد هذه الاشياء وأراها النـاس في المسجد قائلاً ان عثمان يريد ان يشتري ديني بدنياي . وعظّم الناس محمـداً لنزاهته والتفوا حوله لذلك .

وكاتب الساخطون في مصر بقيادة ابن ابي حذيفه الساخطين في الكوفة والبصرة ، وخرج جماعة من هذين المصرين وجماعة من مصر يقدرون بألفي رجل من ديارهم الى المدينة يدعون رغبتهم في الحج ثم عرجوا على المدينة ، وهنالك حاصروه في داره اربعين ليلة يريدونه ان يعتزل وهو يقول : « ما كنت لأخلع قميصاً ألبسنيه الله » .

وصار عثمان مضطرب الرأي لا يعرف ماذا يفعل ازاء هذه المحنة ، فهو قد رفض ان يذهب الى الشام ليكون متحصناً بجيوش معاوية، ولو فعل ذلك لأصبح مديناً لمعاوية بمنصبه، وهو قد رفض ان يقبل من عماله اقتراحاً بارسال جنود اليه في المدينة ليحموه لأنه كان يخشى ان يضيق الخناق على اهل المدينة وفيها اصحاب الرسول (ص) ومنع عثمان كذلك – حين اشتدت الازمة – علياً وأبناءه ومن جاء لمساعدته من ان يضربوا بسيف دفاعاً عنه بالرغم من ان علي بن ابي طالب ألح عليه في ذلك طالباً منه ان يسمح لهم بالدفاع عنه .

ثم ما لبث عثمان ان بعث الى عماله في الامصار يطلب النجدة ليحموه من غوغاء رجال الامصار الذين قدموا الى المدينة . وكانت هذه النجدات ذات أثر سيء في موقف عثمان بالمدينة إذ خشي الثائرون على امرهم ، وعرفوا انهم ان لم يتخلصوا من عثمان بسرعة فان الفرصة لا محالة فائتة ، فضيقوا عليه الخناق ، ومنعوه الماء والصلاة في المسجد وهو الذي حفر لأهل المدينة بئر رومة فوعده النبي (ص) بها الجنة . وهو الذي وسع المسجد فاذا به اول مسلم يمنع من الصلاة فيه، وساء موقف الخليفة في عاصمة الامبراطورية

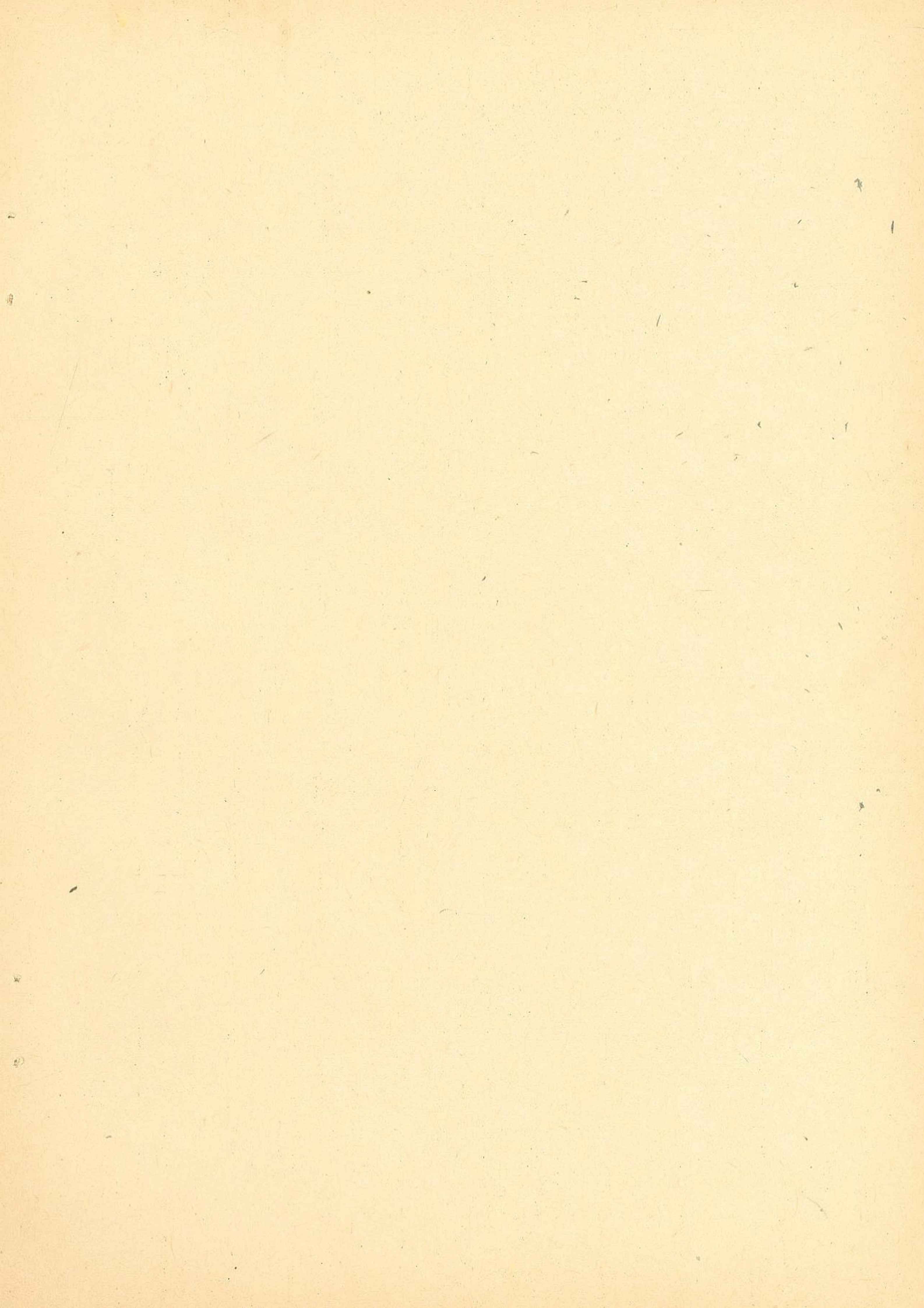
الاسلامية ، ولم يقم الانصار دون عثمان ينصرونه بل لزموا دورهم ، وحاول علي وأولاده وابن الزبير ان يبعدوا الثائرين عن عثمان . ولكن كان جلياً ان الناس قد تخلوا عن خليفتهم واسلموه . ولم يجد من ينصره ، وعجب من القوم الذين يريدون قتله وهو يقول : سمعت رسول الله (ص) يقول : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا في احدى ثلاث : رجل كفر بعد ايمانه ، او زنى بعد احصانه ، او قتل نفساً بغير نفس » . فوالله ما زنيت في جاهلية ولا في اسلام قط ، ولا تمنيت ان لي بديني بدلاً منذ هداني الله ، ولا قتلت نفساً . ففيمَ يقتلونني » .

وكان الثوار يردون عليه بأن دمه يحل لهم فهم يرون انه من الذين عاثوا في الارض فساداً لسيرته وسيرة أقاربه من العمال في الامصار ، ويرون انه كان باغياً اذ فضل فئة من المسلمين وهم أقاربه على بقية الناس ، ويرون انه أخلف وعده الذي قطعه على نفسه حين سأله عبد الرحمن بن عوف فلم يسر في الرعية سيرة الرسول (ص) وصاحبيه .

وكان عثمان صائماً في صبيحة مقتله ، وكان يحدث الناس انه رأى النبي وأبا بكر وعمر وهم يقولون له افطر عندنا الليلة يا عثمان . وأخذ عثمان المصحف بين يديه وطفق يتلو من آيات ربه والثائرون حول الدار يصيحون ويتذمرون ، ويدخلون عليه في بيته ، فدخل عليه فيمن دخل محمد بن ابي بكر الصديق وجذب الشيخ من لحيته ، وهو ينكل به ، ثم ما لبث أن تسور الثوار الدار فاذا بالشيخ وحده في جلسته يرتل القرآن ، وأحاط به الناقمون ، ولم يجرؤ أحد منهم ان يمسه بسوء أول الامر حتى رفع احدهم

حديده بيده وأهوى بها على رأس الشيخ فشجه ، ورفع سودان بن حمران سيفه وأهواه على جسد الخليفة . فالتقت نائلة زوجة عثمان السيف بيدهافقطع أصابعها وسال دم الخليفة على ثيابه ومصحفه ، ثم اسلم روحـــه في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ وذلك في يوم الجمعة ١٧ يونيو سنة ٦٥٦ م .





١١

النِّزاعُ الثُّلاثي

علي وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية

قتل عثمان كما قتل من قبله عمر بن الخطاب ، ولكن الفرق بين القتلتين كان عظيماً ، فان قاتل عمر كان رجلاً واحداً ، وكان غير مسلم ، فهو غير مقيد بالشريعة الاسلامية ، وليس له الوازع الديني الذي يردعه عن ارتكاب تلك الفعلة الشنيعة بل الواقع انه كان لديه من الأسباب القوية ما يجعله يقتل عمر ، فهو كان يرى ان قوة الدولة الاسلامية في خليفتها القوي. وقوة العرب المعنوية في عمر . امـا قتل عثمان فقد كان بأيد مسلمة بايعته على الخلافة ورضيت به رئيساً للدولة بعد ان رضي به اهل المدينة .

والخليفة في الدولة الاسلامية لم يكن رئيس الدولة فحسب بل كانت له

مكانة يحوطها بعض الوقار الديني ، فأبو بكر يسمى خليفة رسول الله ، فهو ليس بخليفة لرأس الدولة السياسي ولكن اكثر من ذلك ، وهناك سبب جعل للخليفة هذه الهيبة الدينية وهي مكانته كمنفذ للشريعة الاسلامية التي بينها الله فهو وان حكم باختيار الناس إلا انه يحكم بأمر الله .

لذلك نجد ان الثوار الذين قتلوا عثمان قـد اتوا بأمر عظيم الخطورة لانهم بعملهم ذاك اضاعوا تلك الهيبة الصورية التي كانت تحيط بالخليفة . فاذا بـه رجل من الرجال يعتدي عليه المسلمون الذين حرمت دماؤهم على بعضهم بعضا الا بالحق وكانت هـذه الفعلة سابقة خطيرة في تاريخ المسلمين اذ تعدد بعدها قتل الخلفاء ، او محاولة اغتيالهم .

قتل عثمان ولم يكن الثوار يريدون قتله اول الأمر ، بل كانوا يريدون ان يضيقوا عليه اشد التضييق حتى يعتزل الامارة ، ورفض عثمان ، واصروا على موقفهم . ولو تنازل عثمان لمـا قتلوه بل لبحثوا عن رجل آخر يولونه الأمر بعد مشورة المسلمين . ولو لم يقتلوا عثمان ومات ميتة طبيعية لفكر المسلمون في امرهم ووجدوا لهم حلاً سليماً ، الا ان عثمان قتل قبل ان يعرف الثائرون الخطوة الثانية ، وخلا منصب الخليفة . وحاول الثائرون ان يجدوا للخلافة رجلاً يصلح لها .

ومع ان مقتل عثمان كان نتيجة ثورة الامصار على سيطرة المدينة فقد كان المسلمون يرون ان الامر يجب ان يكون في احد رجال الشورى الذين اختارهم عمر، وكان الاحياء منهم آنذاك علياً وطلحة والزبير وسعد بن ابي وقاص . والتف المسلمون حول هـذا النفر من قريش يريدون ان يولوا واحداً منهم ، وكلهم يرفض ذلـك ، وحار الناس في امرهم لا يدرون ماذا يفعلون ، وبقي

منصب الخليفة خالياً مدة اسبوع من ١٧ يونيو سنة ٦٥٦ الى ٢٤ منه .

ولا ريب في ان علياً والزبير وطلحة وسعداً كانوا يشعرون بأنهم مسؤولون عن ايجاد حل لهذه القضية . وبقي طلحة والزبير وعلي فالتقوا وقال لهم علي إما ان أبايع احدكما او تبايعاني ، فقبلا بيعته وبايعاه مع من بايع من أهل الأمصار وبعض سكان المدينة . وامتنع عن البيعة رجال منهم زيد بن ثابت وآخرون من الانصار . وهكذا تمت البيعة لعلي وكان اول من بايع الثوار من رجال الأمصار ثم تبعهم طلحة والزبير وجماعة من المسلمين بالمدينة .

وعلي بن ابي طالب هو الذي وصفه عمر بأنه الرجل الذي يستطيع ان يحمل الناس على الجادة لو آلت اليه الخلافة ، وكان عمر يريدها له لولا ما كان يخشاه من اجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم ولذلك عهد لمجلس الشورى أن يختار . وعرف الناس السيرة التي سيسير عليها الخليفة الجديد ، وكان اول من عرف ذلك طلحة والزبير ، ثم بنو أمية الذين ورثوا اموال المسلمين التي اخذوها ايام خلافة عثمان . وكان علي يريد ان يعيد للاسلام سيرة عمر وابي بكر ، وان يحجز كبار رجال قريش من امثال طلحة والزبير اللذين كانت لهما الاموال الطائلة والضياع الغنية ، فقد كانت تقدر ثروة الزبير بين ٢٥و٥٢ مليوناً من الدراهم ، وطلحة بما يقرب من ٣٠ مليوناً من الدراهم ومائة ألف دينار ، وسعد بن ابي وقاص بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف درهم. وبطبيعة الحال كان هؤلاء الكبار يخشون على اموالهم ، كما كانوا يخشون ان يحاول علي حجزهم بالمدينة فلا يخرجون الى تنمية ثروتهم وكسب الناس الى صفوفهم ؛ وقد فعل طلحة ذلك وعثمان محصور اذ كان يجتمع اليه الناس في داره وهو يعظهم حتى خشي عثمان على نفسه فأخبر بذلك علي بن ابي طالب وكان غائباً بخيبر ، فلما علم بذلك علي أخذ بعض المال من بيت مال المسلمين وقسمه على

ما الفرق بين

رواد دار طلحة حتى تفرق الناس عنه ، وكلم علي طلحة في ذلك ولامه ، فمضى طلحة الى عثمان الذي فرح بعمل علي . وقال طلحة : يا امير المؤمنين أردت امراً فحال الله بيني وبينه . فقال عثمان والله ما جئت تائباً ، ولكن جئت مغلوباً الله حسبك يا طلحة . وكان علي بالنسبة لهؤلاء فقيراً كل الفقر فهو لما قتل لم يترك غير سبعمائة درهم هي كل ما أدخره طوال حياته .

ومما لا شك فيه ان الزبير وطلحة كانا يمنيان انفسهما بالادارة على البصرة والكوفة ثمناً لمبايعتهما لعلي ، وقد طلبا منه ان يوليهما العراق واليمن إلا أنه أجابهما « بل تبقيان معي لآنس بكما » وعصى بن عباس حين نصحه بأن يوليهما البصرة والكوفة لأن في هذين المصرين الرجال والاموال فإن وليا امرهما تملكا رقاب الناس وربما طلبا السلطان . ومن هنا نشأ الخلاف بين علي وبين هذين الرجلين وعلما انهما تعجلا في مبايعته لأنه يريد ان يستأثر بالحكم وحده ، ويريد ان يعيد سيرة الخليفتين ابي بكر وعمر فكان ما كان من نقض هذين القطبين لبيعته بعد ذلك .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا هو ان معارضة عثمان لم تبدأ من عامة الناس ولكنها بدأت من بعض كبار الصحابة امثال ابن مسعود وأبي ذر وعمار ابن ياسر وعبد الرحمن بن عوف وعلي وعائشة وغيرهم . هؤلاء هم الذين تزعموا حركة المعارضة ، وبعضهم حرض العامة على النهوض ضد عثمان ، وكان من أثر ذلك ان قام بعض رجال الانصار بتلك الثورة وكان هؤلاء الصحابة وأضرابهم ممن بايع علياً ، وكانوا هم الذين يديرون معه سياسة خلافتهم ، وهم قوم ثاروا على الاوضاع التي حدثت في عهد عثمان وأرادوا ان يضعوا الأمور في نصابها القديم فلا إثرة ولا فساد في سياسة الدولة .

وهؤلاء هم المتشبثون بتعاليم الدين وأخلاقه وكانوا يريدون ان تسير سياسة الدولة كسابق عهدها ، وأن يشيروا على الخليفة وأن يعمل الخليفة برأيهم ما امكن ذلك .

ثم بويع لعلي بالخلافة ، وكان من المبايعين كبار من الصحابة ممن انتقدوا سياسة عثمان ، ومن بينهم الثوار الذين قتلوا عثمان، وأراد علي ان ينهي اسباب الثورة والاضطراب وذلك بعزل عمال عثمان من اقاربه ، وعزل الآخرين من الذين كانوا مقربين اليه ، فاذا به يعزلهم جميعاً مرة واحدة ويرسل بدلاً منهم عمالاً آخرين . إلا انه لم ينجح في تنفيذ سياسته هذه . ولم يكن من السهل عليه ان ينجح وذلك لأن عثمان سبقه في توطيد شعائر بني امية في كثير من الأمصار . وكان عماله يشترون الناس بما ينفقونه عليهم من مال المسلمين كأنه مالهم الخاص ، فاتخذ بنو أمية صنائع كثيرة لهم في كل مصر من الامصار ، كما كان بعض الناس يعلم بأن الخليفة الجديد لن يطلق يده في الأموال فيعطي كل من أتاه بغير حق . وكان معاوية اقوى هؤلاء العمال في مصره . فهو قد ولى الشام في حياة عمر وخلافة عثمان . وكانت الشام من ارقى البلاد في ذلك الوقت وكانت ثغرا من ثغور الاسلام يغير منه المسلمون على الروم . وطالت فيه ولاية معاوية كما استطاع ان يطلق يده في أمور الشام كيف شاء في عهد عثمان فثبت اقدامه هناك ، وجعل من الشام دولة داخل دولة الاسلام، لذلك ترى انه يمتنع على الخليفة الجديد ولا يبايعه ، او يرد عليه بما يعرف منه انه لن يبايع مدة ثلاثة اشهر .

علمت عائشة — ام المؤمنين — بأن الثوار قتلوا عثمان وهي في مكة ، وكانت قد خرجت من المدينة حتى لا تحضر قتلته . وكانت عائشة من المعارضين لعثمان المؤلبين عليه ، وكانت تساند اخاها محمد بن ابي بكر الصديق

في تحريض الناس على عثمان فهي لم تكن راضية عن السياسة التي انتهجها عثمان وتقريبه لأقربائه . وعلمت بقتله بعد ان انهت حجها وأرادت الذهاب الى المدينة . ولكنها علمت ان الثوار وبعض الانصار بالمدينة قد بايعوا علي بن ابي طالب ليكون خليفة للمسلمين . فما لبثت ان اخذت تحرض الناس في مكة طالبة منهم ان يخرجوا للمطالبة بدم عثمان ممن قتله وكانت السيدة عائشة من غلاة المعارضين لسياسة الخليفة المقتول . ويقول ابن الاثير انها كانت تقول محرضة على عثمان « اقتلوا نعثلا فقد كفر » غير انها لما علمت بأن الثوار وبعض الصحابة قد اختاروا علياً قالت : « ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الأمر لعلي » . ثم خطبت في الناس تدافع عن سياسة عثمان ذاكرة بأنه قد تاب ، ولم يعد هناك ما يستوجب قتله . واستجاب لدعوتها هذه عبدالله ابن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة ، وانضم اليها بنو أمية الذين هربوا من المدينة ، وجاءهم عبدالله بن عامر ابن كريز والي عثمان على البصرة ومعه اموال بيت المال هناك ، وكذلك يعلى بن منية عامل عثمان على اليمن وقد ساق معه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، ثم اقبل عليهم طلحة والزبير وقد هجرا المدينة بعد ان ارسل علي ابن ابي طالب عماله الى الامصار ولم يجعل لهما في الامر شيئاً . ثم استقر رأي الجماعة ان يخرجوا الى البصرة وقد حببها اليهم ابن عامر لأنه ترك فيها كثيراً من انصاره ، وتركوا الشام حيث كان معاوية قد كفاهم وإياها ، وهذا يدلنا على ان المطالبة بدم عثمان انما اتخذها هؤلاء النفر من بني امية وغيرهم حجة ليسلخوا الامصار على الخليفة الجديد ، فلا يجد شيئاً غير الحجاز . وكانت لهذه الاموال التي بأيدي هذه الجماعة فائدتها في تسخير الناس والخروج بهم الى البصرة. وقد مكنتهم هذه الأموال من ايجاد عدد كبير من الانصار .

بيد انه كان هناك أمر لم تستطع هذه الفئة من المسلمين ان تحسمه وهو مشكلة الخلافة ، فقد كان في الجماعة زعيمان همـا طلحة والزبير ، وكل منهما يريد الخلافة لنفسه حتى حار في أمرهما مروان بن الحكم ، فلم يعرف من منهما الذي سيؤم الناس للصلاة ؛ ولمن يبايع ، غير ان عائشة حسمت الموقف حتى ينجلي الامر عن بينة فأمرت ان يصلي بالناس ابن اختها عبد الله بن الزبير ، وهكذا تهادن الزعيمان حتى يتمكنا من التخلص من علي .

رأى عـلي بن ابي طالب ان الامر يتفاقم ، وان جموع عائشة وطلحـة والزبير يتزايد عددها ؛ وانهم توجهوا الى البصرة ، فعزم على المسير الى الكوفة في اكتوبر سنة ٦٥٦ . وكان قد وصل اليه من عاملهـا ابي موسى الاشعري ان الناس قد رضيت به خليفة ، وبين له عدد من يقف في صفه ومن يعارض خلافته فعرف على انها حصنه المنيع .

وتقدمت السيدة عائشة وطلحة والزبير الى البصرة ، وكان قد وصل اليها قبلهم عامل علي بن ابي طـالب وهو عثمان بن حنيف الأنصاري ، فمنعهم من الدخول اليها حتى يعرف خبرهم ؛ وأبى ان ينضم الى السيدة عائشة ومن تبعها ، وانقسمت البصرة الى قسمين : جماعة مع عائشة واخرى مع علي بن ابي طالب يقودها عثمان بن حنيف ، وأخذت عائشة تفاوض بعض رجال البصرة للانضمام اليها ، او القبوع في ديارهم فلا يخرجون الى قتالهـا والانتصار لعلي وأخبرت رجال البصرة انها انما خرجت تطلب دم عثمان . واستمرت المفاوضات بعض الوقت ثم ما لبث المعسكران أن تقاتلا وانتهت المعركة بانتصار حزب السيدة عائشة ، وقبض على عثمان بن حنيف فأمرت عائشة بقتله إلا أن حزبها خاف ان يؤثر ذلك في نفوس الانصار فينضم كلهم الى علي بن ابي طالب ، واكتفوا بأن نتفوا شعره وأرسلوه الى المدينة بأسوأ حال .

بلغ علياً خبر عائشة وما فعلته بأهل البصرة وهو بذي قار وقد عسكر بعدد من الرجال يريد ان يتقدم الى الكوفة، فأرسل محمد بن ابي بكر الصديق وابنه الحسن بن علي للقاء ابي موسى والاتفاق معه على شيء ، وكان ابو موسى يدعو الناس ويقول : « انها الفتنة التي حدثكم بها النبي ، وان النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ؛ والقائم خير من الراكب ، والراكب خير من الساعي » . وكان يلوم عمار بن ياسر على انه قتل عثمان بن عفان ، وكان عمار ممن ارسلهم علي لمقابلة أبي موسى . وكانت عائشة في هذا الوقت قد ارسلت الكتب الى بعض رجال الكوفة تحرضهم على قتال علي والنهوض معها . وكثر الخلاف في الكوفة حتى حسمه ابو موسى بأن أقر بأن الزبير وطلحة قد بايعا لعلي ، وان من الخير للمسلمين ان يكونوا بإمام يسيرون خلفه، ويساندونه من ان ينقسموا الى عدة شعب . وهكذا سار رجال الكوفة في جيش عدده اثنا عشر الفاً الى علي بن ابي طالب، بعد ان رأوا أن من الاصلح ان يكون لهم امير يسيرون بسياسته ويأتمرون بحكومته من ان يوسعوا هوة الخلاف .

تقابل العسكران بذي قار وأرسل علي يفاوض السيدة عائشة وطلحة والزبير وهو يريد الاصلاح وذلك ما كان كلا الطرفين يدعيان انه مرادهما ، وذكر طلحة والزبير بانهما يريدان ان يقضيا على قتلة عثمان لأن ذلك امر كتاب الله في من قتل دون حق ، وان من ترك حدود الله فقد ترك كتاب الله ، وقال لهم رجال علي بأن الحدود وإقامتها من اختصاص الوالي ، والوالي الآن هو علي ، فيجب ان يطيعا امره وهو الذي يأخذ بدم عثمان، إلا أن المحادثات بين الفريقين باءت بالفشل إذ ظهر جلياً ان الزبير وطلحة والسيدة عائشة لا يريدون ان يقروا لعلي بالخلافة ، وانهم يتهمونه بالتقصير في أخذ الحق

لعثمان ، وكانت مفاوضتهم تدل على تهربهم من الاذعان للخليفة الجديد . وبطبيعة الحال لم يكن لعلي مجال ليبايعهم الآن بالخلافة لأنهما لم يصرحا بانهما يريدانها . ولذلك فقد يصح أن يعتبر مثل هذا الموقف خروجاً عن طاعة الخليفة لأن كلاً من طلحة والزبير كان قد بايع علياً من قبل عندما كانوا جميعاً بالمدينة .

لم تسفر المفاوضات عن صلح فما كان من الجيشين إلا أن التحما ، وكانت السيدة عائشة تركب جملاً وتصيح بالناس حولها ان يستميتوا في القتال والرجال حولها يتقدمون لا يهابون الموت ، وكثر القتل في الناس وانتهت المعركة بانهزام اصحاب السيدة عائشة وقتل طلحة وابتعد الزبير عن الحرب تحت تأثير وخز الضمير ولكن رآه ابن جرموز ، وكان ابن جرموز ممن سار مع الاحنف بن قيس مبتعدين عن القتال وقد اخذوا اذناً من علي لأنهم كرهوا ان يحاربوا زوجة النبي وحواري الرسول (ص) ، واذن لهم علي حتى اذا انتصر اجتمع هؤلاء النفر حوله ، وبايعوه بالخلافة ، وكان يقدر عددهم بعشرة آلاف رجل . وكان ابن جرموز قد وجد الزبير بعيداً عن الموقعة وأبدى له انه يريد الصلاة وقد حان وقتها ، فنزل الزبير . فما كان من ابن جرموز إلا أن قتله غيلة .

فرغ علي من طائفة السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ثم جعل امر السيدة عائشة لأخيها محمد بن ابي بكر الصديق ، واكرم عائشة وارجعها الى المدينة، وبانهزام هذه الطائفة بايعه اهل البصرة وكل من تخلف عن بيعته في العراق او نكث ، وعفا عن كل ثائر ، ولم يلاحق أي هارب من الناس واصبح الخليفة دون منازع على العراق والحجاز واليمن ومصر ، واتخذ في هذه الحقبة الكوفة عاصمة له بدلاً من المدينة . ولأول مرة تفقد المدينة سلطتها على

الامبراطورية الاسلامية ، وتتضاءل مكانتها كمنبر للدولة ، ويضعف مركز الصحابة المجاورين لقبر النبي وتنتقل الأهمية من اهل المدينة الى رجال الأمصار حيث يكثر الجنود والأموال ولم يعد الأمر في ايدي السابقين الى الاسلام بعد ذلك اذ كادت هذه الفئة تنقرض في هذا الوقت .

اما مصر فقد خرج منها عبد الله بن سعد بن ابي سرح بعد مقتل عثمان ، وقد غلبه عليها محمد بن ابي حذيفة ، وظل محمد والياً عليها حتى ارسل علي بن ابي طالب قيس بن سعد بن عبادة على مصر ، فسلم ابن ابي حذيفة الأمر لقيس الذي اخذ من الناس البيعة لعلي بن ابي طالب . فبايع الناس ما عدا جماعة تقدر بعشرة آلاف مقاتل أشكل عليهم الأمر فلم يبايعوا ؛ ولم يجبرهم قيس طالما انهم لزموا الطاعة ، وسكنوا بقرية خربتا بمصر دون أن يثوروا في حرب ، او يهاجموا عامل علي في مصر ، واستقام الأمر لقيس في مصر طيلة إمارته ، حتى خشي معاوية وهو في الشام على مركزه إذ أصبح بين المطرقة والسندال : فعلي بن ابي طالب من العراق وقيس من مصر . وكان لا بد له من أن يؤمن حدوده من احد الجانبين فلجأ الى استمالة قيس بن سعد .

غير ان الرسائل التي ارسلها معاوية الى قيس لم تجد اذنا صاغية فقد رفض قيس كل العروض التي قدمها معاوية ، فعمد معاوية الى الوقيعة بين علي وقيس ، فأخذ يشير الى ان قيس بن سعد قد وعده بالمهادنة ولذلك فهو لم يجبر اهل خربتا على طاعة علي . وبلغ هذا الخبر لأمير المؤمنين ؛ فأراد أن يمتحن اخلاص قيس لقضيته ، فطلب منه ان يقوم بحرب اهل خربتا ، وامتنع قيس عن تنفيذ هذا الأمر لأنه كان يرى انه من الأصلح لأمير المؤمنين أن يترك هؤلاء الناس وشأنهم حتى اذا فرغ من معاوية لم يبق لهذه الجماعة غير الدخول فيما دخل فيه بقية المسلمين ، إلا أن الخليفة خشي أن يكون ما بلغه

صحيحاً فعزل قيس بن سعد وأرسل بعده الاشتر فمات قبل أن يصل ، ثم ولى محمد بن ابي بكر الصديق على مصر .

ارسل علي حين بويع بالخلافة الى معاوية في الشام ليبايع مع من بايع ، كما عزله عن ولايته على الشام . فلم يجبه معاوية الى شيء ولم يصرح بعدم رضاه ، بل بقي في الشام ينتظر سير الحوادث التي انتهت بانتصار علي ، وهزيمة الزبير وطلحة في موقعة الجمل . وكان في هذا الوقت يثير اهل الشام للمطالبة بدم عثمان وهو يضع قميص عثمان الملطخ بالدم ، ومصحفه ، واضابع زوجته نائلة على المنبر ، ويذكر الناس بأن امير المؤمنين قد قتل دون جريرة . وبقي هكذا حوالي ثلاثة اشهر ، فلما فرغ علي من امر السيدة عائشة علم ان معاوية استعد للقتال بمن معه من اهل الشام بعد ان اوغر صدورهم على علي ابن ابي طالب وانضم إليه عمرو بن العاص لا حباً في عثمان ولكن بغية أن ينال شيئاً من الأمر كولاية او إمارة إن هو ناصر معاوية .

بعث علي بعض الرجال ليفاوضوا معاوية ، فلم يحسنوا المفاوضة بل كانوا يشتدون على معاوية ويجرحونه مما جعل هذه المفاوضات ذات أثر سيء على العلاقات بين الحزبين ، وفي آخر الأمر خرج علي بجيشه من الكوفة والتقى بجيش معاوية في صفين وذلك في ١٩ يونيه سنة ٦٥٧ م ، ولما كان ذلك اليوم هو ابتداء المحرم فقد اتفق الجيشان على ان يتهادنا طيلة الشهر ، وتستمر المفاوضات عسى ان يصلا الى حل سلمي . غير ان المفاوضات لم تثمر بما يرضي الجانبين فنشب القتال بين الطائفتين وكاد علي ان يفوز إلا ان معاوية عملاً بنصيحة عمرو بن العاص امر برفع المصاحف على الرماح راجياً من أصحاب علي ان ينزلوا واياهم على حكم القرآن وجازت الخدعة على اصحاب علي ، وقبلوا امر التحكيم ، وأجبر الخليفة على قبول التحكيم ، كما أصر اصحابه على ان

يكون ابو موسى الأشعري ممثله في الامر، واختار معاوية عمر بن العاص وكان ابو موسى يرى ان هذه فتنة يجب ان يبتعد عنها الناس فهو لذلك ابتعد عنها، ولكنه رضي ان يكون حكماً لجانب علي .

وأهم ما يلاحظ في قرار التحكيم هو انه أساء الى مكانة علي بن ابي طالب الذي كان خليفة فوضع موضع الدعي ، كما رفع مكانة معاوية الذي كان يطالب بدم عثمان فحسب ، فإذا به يوضع كمطالب بالخلافة بعد ان كان عاملاً من عمال الخليفة فأضحى في مكانة تستوي مع مكانة علي ، وانقسم اصحاب علي طائفتين : طائفة ترغمه على قبول التحكيم ، وطائفة ترى أنه يجب عليه ألا يقبل التحكيم لأنه اذا قبله جعل نفسه في موضع الدعي على الخلافة ثم إنه يجعل امر الخلافة في ايدي الناس ، وان الله لم يكن هو الذي اختاره لهذا المنصب ، فهو لذلك متشكك في الامر ولتشككه هذا فقد قبل التحكيم . ولما كان خروجهم معه انما كان لأنه الخليفة فانه لم يجدوا ما يبرر وقوفهم معه الآن ، ولهذا فقد خرجوا من بين صفوفه وتوجهوا الى حروراء في عدد قدره اثنا عشر ألف محارب ، وهكذا نشأ هذا الحزب الجديد ، وعرف بالخوارج بعد ذلك .

تم الاتفاق بين علي ومعاوية على أن يتقابل الحكمان أبو موسى الاشعري ، وعمرو بن العاص ، ومع كل منهما اربعمائة رجل ليشهدوا بما يتم عليه التحكيم ، وكان لكل من الحكمين التفويض الكامل من صاحبه ليفعل ما فيه صلاح المسلمين كما يراه . وأبو موسى رجل عرف بتقواه وحسن دينه . كما لم يكن غبياً تجوز عليه الخدعة ، ولكنه لم يكن من المتحمسين لقضية علي ، بل كان أقل الناس حماساً للوقوف في اي جانب من الجانبين ، فهو لذلك لم يكن حكماً يحدوه هوى لعلي او بغض لمعاوية ، ولكنه يرى ان المسلمين قد وقعوا

في فتنة ، وان من واجبه ان يفعل ما يمكنه لإخماد هذه الفتنة دون ان يحمل سيفاً . فاذا سلمنا بأن هذا هو رأي ابي موسى كما رأينا في اقواله عن الفتنة عرفنا انه إنما ذهب الى التحكيم برأي مدبر من قبل وهو ان يعزل احد الزعيمين ، وقد جعل اصحاب علي في يده هذا الحق ولم يعطه معاوية هذا الحق لأنه لم يفوضه في الامر .

اجتمع الحكمان في أذرح بين العراق والشام ومعهما ذلك العدد من الجانبين . ويقول الرواة ان عمرو بن العاص وأبا موسى اتفقا على عزل كل من الرجلين قبل الوقوف في منبر التحكيم ، فلما ازف الموعد تقدم ابو موسى بعد ان افسح له عمرو المجال فخطب الناس وقال لهم : « أيها الناس إنا قد نظرنا في امر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ، ولا ألم لشعثها من امر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو ان نخلع علياً ومعاوية ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولون هم من احبوا عليهم . واني قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر اهلاً » .

ثم وقف عمرو وقال « ان هذا قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وانا اخلع صاحبه كما خلعه ، واثبت صاحبي معاوية ، فانه ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه والطالب بدمه واحق الناس بمقامه » .

وبنظرة اخرى الى كلام عمرو نرى ان عمراً كان ينظر في امر الخلافة نظرة وراثية ، فهو يذكر ان قرابة معاوية من عثمان هي التي توجب ان يخلفه على منصب الخلافة دون غيره من الناس . وهذا هو الأمر الذي جاهده ابو بكر وعمر حين ابعد الخلافة عن بيت النبوة مخافة ان تصبح وراثية فهما اجتهدا ان يجعلا الدولة جمهورية لا ملكاً وراثياً .

ولم يكن عمر هو اول من فكر في جعل الخلافة وراثية ، بل كان يتأثر في قوله هذا بني هاشم حين كان علي يطالب بالخلافة كحق من حقوقه لما بينه وبين محمد من قرابة قريبة ، وعندما كان علي يعتقد بانه احق الناس بها وبكل ما ترك محمد من ميراث . وركز عمرو مفاوضته مع ابي موسى ومع المجتمعين للتحكيم على الصلة القريبة بين معاوية وبين الخليفة المقتول ، فهو قد جعل من ذلك الرأي القديم الذي كان يجهر بـه علي أساساً للخلافة الجديدة التي يجب ان تؤول الى معاوية لقرب نسبه بعثمان .

ويحسن بنا ان نضيف ان عثمان لما قتل ترك وراءه بعض الابناء منهم أبان ابن عثمان وكان ممن سار مع عائشة في واقعة الجمل ثم فر مع من طلب النجاة، ومن الغريب حقاً ألا يذكر عمرو بن العاص شيئاً عن حقوق ابنـاء عثمان في الخلافة دون غيرهم من الناس مهما كانت قرابتهم من عثمان .

هكذا خسر علي موقفه كخليفة ، وكسب معاوية الموقف في انـه ثبت كخليفة وهو امر لم يشر اليه مطلقاً ، ولم يطالب به تصريحاً ، فكسب هذه الجولة واصبح له الحق في ان يطالب بالخلافة جهراً بعد الآن بعد ان كان يطالب بدم عثمان من قبل ومع ذلك فـان معاوية لم يدع الخلافة لنفسه إلا بعد مضي سنتين من التحكيم الا ان اهل الشام كانوا يدعونه بأمـير المؤمنين منذ قرار التحكيم . ٥

لما بلغ علياً قرار التحكيم لم يقبل به لما فيه من اعتداء على مقامه كخليفة ولأن الحكمين لم يتفقا على امر مجمع كما يقضي بذلـك التحكيم ، ولان قضية التحكيم انتهت بهذه المهزلة . وقـد كان لهذا القرار أثر سيء في نفوس المسلمين اذ تشاتم ابو موسى وعمرو فسب ابو موسى عمراً على انه كلب، ورمى

عمرو أبا موسى بأنه حمار ، وضج الناس لأن الحكمين اختلفا وزاد الضجيج في معسكر علي حيث رفض ان يذعن لقرار الحكمين ان كان لهما قرار واحد. وتساءلت جماعة من اهل العراق عن موقف علي من هذا الحكم ، وكانوا يصرون على ان ينزل عليّ على رأي الحكمين فيكون مخلوعاً . فلما ابى علي ذلك خرجوا عليه كما خرج من قبلهم جماعة ولحقوا بالخوارج في حروراء .

اصبح موقف الخوارج الآن أقوى مما كان قبل التحكيم إذ انضمت اليهم جماعة من صفوف علي ، كما ان التحكيم أسفر عن خلع علي وبذلك اصبحت الدولة الاسلامية في نظرهم بدون خليفة شرعي ، ولا بد للمسلمين من ايجاد ذلك الخليفة الآن حتى يوحد كلمة المسلمين ، وموقف معاوية – حسب نظرهم – موقف غير سليم لانه لم يختره احد أبداً ، وانما هو مارق عن الجماعة التي اختارت علياً ولذلك فلا حق له في الخلافة .

وابتلى علي بهذه الفئة من الخوارج التي اجتمع رجالها من أهل البصرة والكوفة في النهروان واختاروا عبدالله بن وهب الراسبي خليفة لهم ، ثم أخذوا يهددون العراق – مدنه وقراه – طالبين من الناس البيعة لعبدالله والنزول على طاعته . وأصبحوا خطراً داهماً على سلطة علي فهم من المشرق، ومعاوية من المغرب وأضحى علي بين فكي التنين . وتعذر عليه أن يخرج لقتال معاوية في الشام لاحتمال إغارات الخوارج ، فكان لا بد من قمع فتنتهم قبل الخروج الى معاوية . والتقى الجمعان في النهروان وانتهت المعركة بهزيمة الخوارج هزيمة منكرة أضعفت من شوكتهم الى حد بعيد ، الا ان اثرها على جماعة علي لم يكن باليسير اذ خفضت من روحهم المعنوي ، وثبطتهم عن الخروج لقتال معاوية . ومكث علي بعدها يرد الهجمات المختلفة التي كان يشنها معاوية على الأمصار المختلفة التابعة لعلي . وكان من اهمها ما نزل

بالحجاز واليمن وانهزام جند علي اول الامر ثم ما لبث علي ان استعاد هذه البلاد .

وفي مصر كانت الامور تسير على غير ما يرضي علياً ، فقد ذكرنا أن علياً خلع قيس بن سعد وعين بعده الأشتر الذي مات قبل ان يصل ثم عين محمد بن ابي بكر الصديق على مصر . وكان محمد فتى غير مجرب فما لبث ان ناهض أهل خربتا وحاربهم ، واستعان هؤلاء بجنود معاوية التي كان يقودها عمرو بن العاص لفتح مصر ، وما لبث ان انتصر عمرو على محمد وقتله ، وسقطت مصر في يد معاوية الذي عين عليها عمرو بن العاص والياً مدى الحياة . وبفقدان مصر فقد علي بن أبي طالب مركزاً قوياً للهجوم على معاوية في الشام من ناحية الجنوب ، وهكذا أمن معاوية رقعته من ناحية مصر .

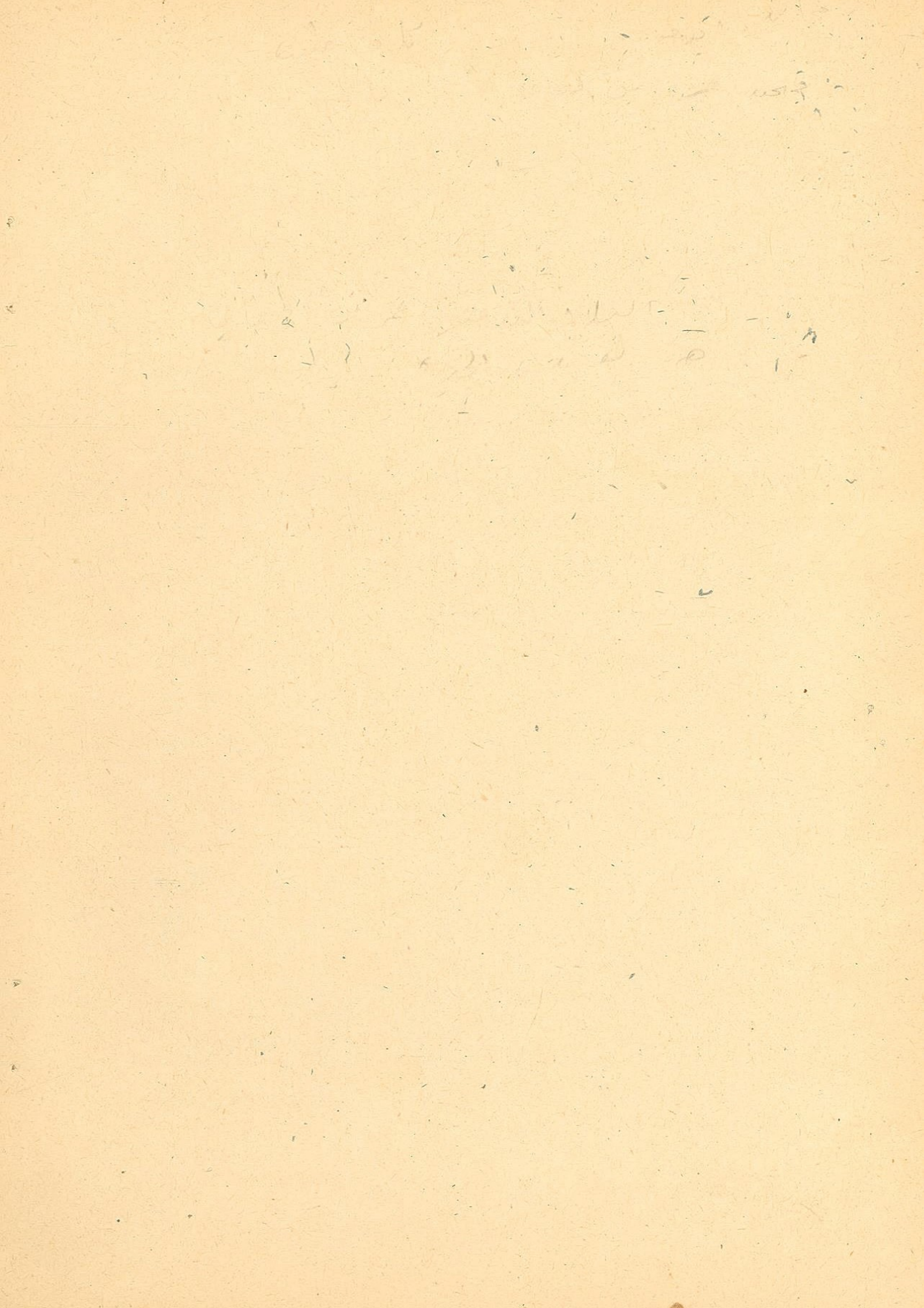
سئم الفريقان القتال وأرسل معاوية الى علي يطلب منه عقد هدنة بين المعسكرين حفاظاً على دماء المسلمين على ان يكون العراق لعلي والشام لمعاوية . وكان علي يستعد في هذا الوقت للخروج الى اخضاع معاوية . ولم تسفر الاتصالات لعقد هدنة بين الطرفين عن شيء ، وسارت المناوشات بينهما على الحال الذي ذكرناه وكان علي يلاقي الامرين من رجاله لسوء طاعتهم له ، لأنهم يمتنعون عن الخروج الى القتال كلما أمرهم بذلك ، بينما كان جند معاوية أحسن طاعة ونظاماً . وقنع العراقيون بما لديهم ، فهم كانوا راضين عن أن يكون علي خليفة عليهم وعلى ما جاورهم من بلاد فارس. وكانت هذه ظاهرة من ظواهر الانقسام في داخل الدولة الاسلامية اذ ترى أن المسلمين في العراق ينظرون الى أنفسهم كعراقيين . وحسب جنود المسلمين الذين كانوا في الشام انفسهم شاميين فكأنما وضعت البذور الاولى في الدولة الاسلامية لتكوين أمتين مختلفتين في سياستهما . وبدأ كل فريق يتعصب لأهل مصره ويناضل

في سبيل حفظ كيانه وكدولة مستقلة تمام الاستقلال .

وليس من الغريب أن تكون الزعامة في هذين الثغرين دون غيرهما من بلاد المسلمين لأن الشام كان يطل على الامبراطورية البيزنطية وفيه الرجال وفيه المال ، والعراق كان مطلاً على بقية بلاد فارس والترك والهند وفيه من الرجال والمال والعدد الوفير والشيء الكثير . وفي هذين المصرين تجمت جيوش العرب ، بينما قل عدد العرب في البلاد الاخرى كالحجاز واليمن ومصر .

لما لم يجد الخوارج مجالاً لإلحاق الهزيمة بجيوش علي والقضاء عليه وعلى معاوية دبروا أمراً آخر ظنوا انه سيكون فيه القضاء على هذه الانقسامات ، فعزموا على اغتيال علي ومعاوية وعمرو . ودبروا الامر على ان يكون في ساعة واحدة ، وخرج ثلاثة من رجال الخوارج كل الى صاحبه لينفذ فيه قرار الخوارج ، وفي اليوم الموعود أصاب عبد الرحمن بن ملجم الخارجي علي بن ابي طالب بسيف قيل انه مسموم فقضى عليه ، ولم تصب الضربة التي وقعت على معاوية مقتلاً منه ، ونجا عمرو من الاغتيال .

وانتهى النزاع بين علي ومعاوية بهذه الطريقة التي دبرها الخوارج ، فانزاح علي من امام خصمه ، وبايع الناس في العراق الحسن بن علي ، بيد إن موقفه لم يكن في قوة موقف ابيه إذ ثار عليه بعض الناس يرجون ان ينالوا ثراء مما في خزائن بيت مال المسلمين في العراق بعد ان عرفوا عن إغداق معاوية على مريديه ، وخشي الحسن ان يخسر القضية ، ويفني المسلمون بعضهم بعضاً . فآثر ان يتنازل لمعاوية وتم الأمر ، وتخلى عن العراق بعد ان ضمن لنفسه رزقاً عظيماً من معاوية . وهكذا خلا الجو لمعاوية بعد طول صراع ، ومن ذلك الوقت تم تأسيس الدولة الأموية .



١٢

الدّولة الأمويّة

تنازل الحسن بن علي عن الخلافة وقد اعطاه معاوية كل مـا طلب من أموال ، ثم ذهب الى المدينة لينعم بحيـاة هادئة بعيدة عن قلاقل السياسة وهزات الخلافة . وأصبح معـاوية الرجل الوحيد الذي يملأ منصب الخلافة . وكما يظهر لنا فان معاوية لم يرث هذا المنصب من آبائه ولكنه جاهد في سبيله حتى تم له الامر اخيراً .

وكما وجد علي بن ابي طالب أحزاباً متعددة في الامبراطورية الإسلامية كذلك وجد معاوية انصداعاً في هذه الامبراطورية التي انقسمت الى اكثر من قسمين : قسم يناصر ابنـاء هاشم ، وآخر يناصر بني امية ، ثم هنالك الخوارج الذين ناصبوا هذين القسمين العداء. وكان معاوية يعلم ان خصومه على درجة كبيرة من الخطورة ، وان الامر لن يستتب بمبايعة الحسن له لأن هناك أعوان عليّ العراقيين ممن يريدون الخلافـة في العراق حتى يصرفوا الأمور كما

يشاءون . وكان ظاهراً ذلك في النزاع في الاستيلاء على الخلافة بين الشام والعراق . ومن هنا كان على معاوية ان يعمل جاهداً لفرض سلطانه على كل بقاع الامبراطورية دون ان يثير حرباً اهلية جديدة .

وقد أضعفت هذه الحروب الاهلية بين علي ومعاوية مقام الخليفة إذ صار لكبار الصحابة وزعماء العشائر قوة خطيرة كثيراً ما هددوا بها أحد المتنازعين ان لم ينزل على رأيهم ، فعلي أجبر على قبول التحكيم ، ومعاوية اضطر أن يطلق لعمرو بن العاص يده في مصر يفعل بها ما يشاء ، كما ظفر كثيرون آخرون بأموال ومناصب وكان من بينهم زياد بن ابيه الذي جعله معاوية والياً على العراق .

وكانت الامبراطورية البيزنطية ترقب الحوادث عن كثب وتريد ان تنزل الضربة القاضية بمعاوية ودولته في الشام ، وخشي معاوية من هجوم ينبعث من ناحية الروم وناحية علي في زمن واحد فعقد معاهدة عدم اعتداء بينه وبين الروم ، ورضي أن يدفع للروم جزية سنوية كبيرة ، وبذلك أمن حدوده من ناحية الشمال ، أو غزوات الروم بالبحر .

أما الآن وقد انتهت الحرب الاهلية في سنة ٦٦١ م فعليه أن يعيد سلطان الخليفة على سائر الامبراطورية دون إثارة للنفوس ، وأن ينتزع من القلوب الشحناء ، وأن يؤمن البلاد داخلياً ، ويوجه الجيوش لقتال الدول المجاورة ، وان يسير في الاصلاحات الداخلية ما أمكنه ذلك .

استطاع معاوية ان يخمد ثائرة الشيعة ممن يناصرون آل علي بأن أعطى الحسن كل ما أراد من مال ، وبذلك أضاع على الشيعة فرصة الالتفاف حول زعيم مشروع لأن الحسن بويع له وتنازل عن البيعة بمحض ارادته ، ثم بايع

لمعاوية ؛ وأغدق معاوية على آل علي المال في المدينة التي انقلبت الحيـاة فيها الى حياة لهو مترفة لكثرة ما جاءتها من اموال ، وما وصل اليها من موال ، وجوار . وفي هذا الجو قبع الحسن وانغمس فيه وسمي بالمطلاق إذ يربو عدد من تزوج بهن عن مائة . وانصرف الحسن زعيم اهل البيت عن السياسة التي انفرد بها معاوية .

وألحق معاوية زياد بن أبيـه بنسبه فسمي زياد بن ابي سفيان ، وجعله والياً على العراق لأنه من أعرف الناس بأصحاب علي وبدسائسهم وأخلص له زياد كل الاخلاص إذ لم يعد تربطه بآل علي رابطـة بعد ان تنازل الحسن ، ونكل بكل من شايع علياً في العراق وثبت الأمن في الكوفة والبصرة وبلاد فارس وما تضمها الفتوح ، ونجح نجاحاً منقطع النظير في جعل الامن مستتباً في النصف الشرقي من الامبراطورية . وكان يقتل كل من تحدثه نفسه بالثورة على خلافـة معاوية ومن بينهم زميله حجر بن عدي الذي كان من كبار العلويين ، وقوى الشرطة في اماراته فسلم الناس من قطاع الطرق والسارقين. وعمد الى تغيير نظـام الجند فبعد ان كان الجنود مقسمين الى فرق حسب قبائلهم يتزعم كل فرقة زعيم القبيلة جعل كل فرقة خليطاً من قبائل مختلفة وولى عليها ضابطاً ممن يدين بالطاعة له وبذلك قلل من خطر الزعامات القبلية التي كانت تهدد وحدة الدولة ومقام الخليفة والامن بمـا ينجم من احتكاك بين كل قبيلة وأخرى .

أما في الشام فقـد كان موقف معاوية قوياً ، فسكان الشام من العرب كانوا قد ألفوا النظـام والقانون منذ أن حكمهم الرومان ، وكان معاوية حريصاً على ان يشعروا بأنه احدهم ولطول مكثه بينهم خلال خلافـة عمر وعثمان تمكن من جعل مركزه في الشام قوياً جداً. وكان يناصره في معضلات

الامور اصهاره من بني كلب اذ تزوج احدى بناتهم وأنجبت له ابنه يزيد . وكان كثيراً ما يعتمد على هؤلاء في كل امر حالك . وكان معاوية يمتاز بحنكة سياسية لا تجارى وكان حليماً الى حد بعيد وهو كما وصف نفسه بأنه لو كانت بينه وبين الناس شعرة ما انقطعت اذا شد الناس ارخاها وان ارخاها الناس شدها وقد رأينا ذلك في معاملته لأبناء علي ولزياد وكثيرين غيرهم .

وبالرغم من ان معاوية جعل عاصمة خلافته في دمشق حيث يكثر المسيحيون في الشام إلا انه نجح في الاحتفاظ بحب رعاياه هناك من مسيحيين ومسلمين ، فقد كفل للمسيحيين حرية الدين ، وأحسن معاملتهم وجعل منهم مستشارين في المسائل المالية مثل سرجون بن منصور . وكان كثير من هؤلاء يحاربون في صفوف جنوده على انهم عرب . ونجد ان معاوية كان يرتكز على العنصرية اكثر من الدين ، فلم يفرق في مناصب الدولة بين عربي ومسيحي وآخر مسلم ، ويعزى السبب في سياسته هذه الى حاجته الشديدة لنصرة العرب المسيحيين في الكفاح ضد خصومه .

غير ان تقريبه لهؤلاء المسيحيين لم يوغر عليه صدور المسلمين اذ كان معاوية كثير الصلاة والورع ، ديمقراطياً عربياً يجلس الى وفود القبائل يستمع اليهم ، ويعفو عن إساءاتهم له ، ويعطيهم عن سعة ولم يتخذ حرساً إلا لأن الخوارج حاولوا اغتياله من قبل . وكان يهتم بأحوال رعيته في البادية ايام القحط ، ووسع على سكان المدينة ليحسّن الزراعة من جهة وليرضي اهلها حتى ينسوا انهم سكان اول عاصمة اسلامية وأن الزعامة خرجت من أيديهم الى الشام وأقام البريد وربط الدولة الاسلامية وأعاد إليها قوتها التي كانت عليها ايام

عمر ، واقتلع جذور الفتنة والثورات الداخلية . وصارت يده فارغة لتوجيه سياسة الامبراطورية الخارجية .

نجح معاوية في تقوية الامبراطورية الاسلامية داخلياً ، وفي السنوات العشرين التي كان فيها خليفة توقفت الثورات الداخلية وأعطى الناس حق التعبير عن رأيهم بصراحة ، وهكذا أطلق الحريات العامة في البلاد .

وفي سنة ٦٧٨ م أخذ يفكر في من يخلفه على هذه الامبراطورية الواسعة ورغب في ان يعهد لابنه يزيد من بعده وأخذ يعمل بكل الوسائل لتحقيق هذا الغرض وأنفق الاموال الطائلة ليرشو بها كبار الصحابة وأبناء الصحابة بالمدينة وفي غيرها من البلاد ، كما توعد الكثيرين بالقتل إن هم لم يبايعوا لابنه يزيد . وبذلك تمت البيعة ليزيد في كل الامصار .

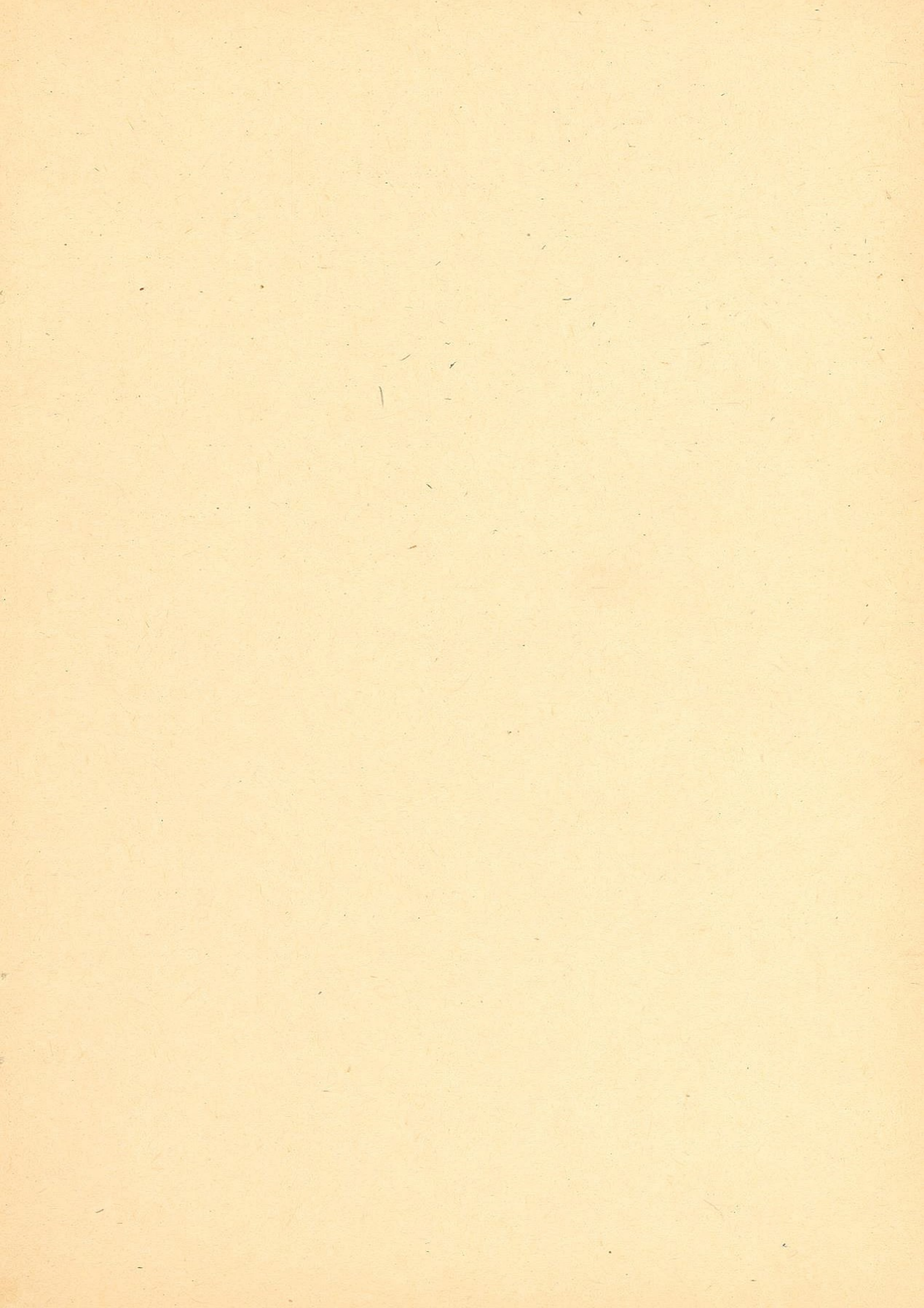
ولما مات معاوية في سنة ٦٨٠ م ارتقى يزيد الى منصب الخليفة . غير أن الطريق كانت محفوفة بالمصاعب ، فقد ثار اهل العراق على خلافة يزيد إذ تحققوا من ان الخلافة الأموية قد سلبتهم القوة السياسية التي كانوا يتمتعون بها ايام علي ، فبعد ان كانوا حكاماً أضحوا محكومين ؛ ولذلك فانهم كاتبوا الحسين بن علي بن ابي طالب ليقدم اليهم من المدينة حتى يبايعوه وينصروه وتلكأ الحسين اول الامر اذ نصح له الناس بأن يبتعد عن اهل العراق الذين خذلوا والده من قبل ولم يطيعوا أخاه الحسن من بعد . وكانت هناك جماعة من ابناء الصحابة يشجعون الحسين على الخروج وكان على رأسهم عبد الله ابن الزبير بن العوام الذي حارب علي بن ابي طالب في واقعة الجمل . وتحت هذا الاغراء خرج الحسين بأهله من نساء وأطفال قاصداً العراق وهو يتوقع ان يلتف العراقيون حوله .

وكان الوالي على العراق آنذاك عبيد الله بن زياد بن ابيه الذي خلف والده بعد موته وعينه معاوية . فأرسل عبيد الله فرقة لملاقاة الحسين وإرجاعه الى المدينة ان اراد السلامة ، او قتله ان اراد الحرب . وعلم العراقيون بخروج الحسين الى بلادهم كما كاتبوه ولكنهم خذلوه ، فلم يخرجوا للوقوف في صفه بل تركوه بذلك العدد القليل يلاقي جند ابن زياد بقيادة عمر ابن سعد بن ابي وقاص ودارت معركة غير متكافئة بين الفريقين انتهت بقتل الحسين وعدد كبير من ذويه في كربلاء في العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ الموافق ١٠ اكتوبر سنة ٦٨٠ م . انتهت بذلك الفتنة ، غير ان نتائجها لم تظهر في الحال وذلك لأن التعصب لأبناء علي لم يكن قد بلغ مستوى يثير معه الثورات ، وكانت المكاتبة بين العراقيين والحسين مرتجلة لم تظهر إلا بعد وفاة معاوية وبعد ان بويع ليزيد في كثير من البلاد ، وكان لسكنى ابناء علي في المدينة وتمتعهم بالأموال التي يرسلها معاوية إقصاء لهم عن كل نشاط سياسي . وكانت الحركات السياسية تأتي من الأفراد دون تنظيم من زعيم ، ولهذا فشل الحسين . إلا أن قتله اثر على النفوس تأثيراً عظيماً واعطى فرصة للشيعة لجعله شهيداً مظلوماً ، فأخذوا يحثون الناس على النهوض في صف ابناء علي ، كما ان خوفهم من سوء سطوة الامويين جعل الحركة الشيعية تعمل في الخفاء كمنظمات سرية فنجحت فيما بعد نجاحاً عظيماً ، وزاد عدد المؤمنين بها فبثوا الدعايات ضد خلفاء الامويين وهاجموهم بشتى الوسائل ، وأخذ التشيع لأبناء علي وجهاً آخر غير سياسي إذ جعلوا منه عقيدة دينية فقالوا بأن لكل نبي وصياً والإمام علي بن ابي طالب هو وصي النبي ، وان ابناءه هم الذين يؤمنون الناس دون غيرهم .

اسف يزيد على قتل الحسين وأراد ان يواسي الجرح الذي خلفه بأن

احسن صلة ابناء علي وردهم الى المدينة ، وبقي في الخلافة ثلاث سنين ثم مات في نوفمبر سنة ٦٨٣ م تاركاً وراءه ابنه معاوية الثاني ليكون خليفة . اما فيما عدا ذلك فلم يحدث تغيير في السياسة التي انتهجها والده معاوية من قبل .





١٣

كتابة مقالة

الحربُ الأهليةُ الثانيةُ

ولي يزيد ابنه معاوية على الخلافة من بعده ، ولكن معاوية الثاني لم يكن رجل سياسة ، ووجد مقاومة من الناس خصوصاً من رجال المدينة والعراقيين على خلافته ، فآثر السلامة ووقف في الناس خطيباً :

« أما بعد ، فإني قد نظرت في امركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب – رحمة الله عليه – حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة الشورى مثل ستة عمر فلم اجدها ، فأنتم اولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم ، فما كنت لأتزودها ميتاً ، وما استمتعت بها حياً » .

وكان لتنازل معاوية أثر قوي في وحدة الدولة الاسلامية ، إذ أنه حطم وحدتها وأجبر الناس على الانقسام مرة اخرى ، فتعددت الأحزاب وتعدد الزعماء . وكما قلنا من قبل فإن البلاد الإسلامية اخذت تنقسم الى أمم مختلفة

أهمها العراق والشام . ومنـــذ اختلافات علي ومعاوية تشيع العراق لعلي ، وساند الشام معاوية ولم تكن أسباب الخلاف في اي البيتين هو الحـــاكم ، ولكن السبب الأكبر كان في أي الثغرين يحكم أهو العراق ام الشام . وقـد ظهر هذا الخلاف جلياً في الصراع الذي قام في غضون الحرب الاهلية الثانية .

قبيل وفاة يزيد ثار عبدالله بن الزبير بن العوام على الخليفة الاموي لأنه أراد أن تؤول الخلافة لابنه معاوية. فأرسل يزيد جيشاً لاخضاع ابن الزبير ، غير ان يزيد مات قبل ان يتم إخضاع ابن الزبير ، ثم تنازل معاوية ولم يبق في الامبراطورية زعيم غير ابن الزبير إذ كان هو الوحيـــد الذي يطالب بالخلافة . وبـدأت المفاوضات بين حصين بن نمير قائـد الجيش الاموي الذي ارسله يزيد لمحـــاربة عبدالله وبين عبدالله على ان يتم الصلح بينهما ، ويبايع حصين عبدالله بن الزبير على الخلافـــة ، ثم يسير ابن الزبير الى الشام يجعله قصبة الخلافة وبذلك يفوز بتعضيد اهـل الشام له . ولكن ابن الزبير رفض ذلك لتشككه في الامر وخشي من نفوذ الشاميين على سلطانه ان جاورهم ، فاضطر حصين الى الرجوع الى الشام حيث بويع لمروان بن الحكم زعـــيم الامويين في ذلك الوقت ، ومستشار عثمان بن عفان سابقاً .

اما ابن الزبير فقد استطاع ان يستولي على العراق الذي تناوبته ايـــد كثيرة فقد استولى عليه المختار من ايدي الامويين بعد ان اشتبك في معركة مع عبيدالله بن زياد ، وانتهت المعركة بقتل عبيدالله ، وكان المختار من شيعة العلويين ، ولكنه استطاع ان يقنع ابن الزبير بالسماح له بسلخ العراق من الامويين تحت رايته فقبل ابن الزبير ، ولكن سرعان مـــا غير المختار رأيه وأراد ان ينفصل بالعراق وحده على ان يجعل خليفته احـد ابنـاء علي الذين كانوا دون الحلم . وكأنما كان المختار يعمد الى تنصيب نفسه وصياً على الخلافة

حتى بلوغ احد العلويين الرشد وبذلك يستطيع ان يدبر شؤون الخلافة ، ثم ما لبث مصعب بن الزبير ان قتل المختار واستولى على العراق ، وحكمه باسم اخيه .

وبايعت مصر ابن الزبير كذلك ، ودانت له كل الامبراطورية الاسلامية.

والذي يجدر بنا ان نلاحظه في هذا الصراع ان الأمر لم يكن بين بني أمية من ذرية أبي سفيان وبين آل هاشم من ذرية علي ، بل أخذ الصراع شكلاً آخر هو صراع بين تركيز السلطة في الشام وبين محاولة العراق السيطرة على الحكومة ، وكان على الشام ان يدافع عن حق ورثه منذ خلافة معاوية ، كما كان على العراق ان يستخلص حقاً فقده منذ تنازل الحسن . وهكذا لم تكن هذه الحرب مسألة مبادىء وعصبية ، بل كانت سياسة محضة بين العراق وبين الشام – كل يريد ان يكون المسيطر على الامبراطورية . ولهذا السبب حاول حصين بن نمير ان يستميل ابن الزبير الى جانب الشاميين وشجعه على جعل دمشق عاصمة له . ولهذا السبب قبل العراقيون زعامة ابن الزبير ودانت الامصار كلها تقريباً لابن الزبير ما عدا الشام. واتخذ ابن الزبير المدينة عاصمة له . وكان العراقيون يودون ان يتخذ ابن الزبير الكوفة او البصرة قصبة خلافته ، اما ابن الزبير فقد قبع في المدينة ينتظر سير الحوادث عند الشاميين الذين بايعوا مروان بن الحكم . وأخذ هذا يعد جنوده لقتال الزبيريين .

وفي الشام عين ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري أميراً على الشام الذي كان يتنازعه مروان وابن الزبير . وكان العرب الذين سكنوا الشام ما تزال العصبية تفرقهم شر تفريق ، فقد كان هناك عرب الشمال او ما يسمون بالقيسية أو العدنانية ، وكان الفريق الآخر عرب الجنوب أو القحطانية أو

اليمنية . واشتد النزاع بين هذين الفريقين على الجاه والسلطان . وعظمت هذه النزعة بينهم عندما تولى معاوية الخلافة وأخذ يلجأ الى اليمنية في صراعه ضد العلويين والعراقيين . وكان معاوية صهراً لليمنية إذ تزوج من بني كلب وهم من اليمنية الذين استوطنوا الشام قبل الهجرة . واعتنقوا الدين المسيحي. وكانت ام يزيد نفسها مسيحية لذلك تم التحالف بين معاوية واليمنية لهذه المصاهرة . بطبيعة الحال قرب معاوية هذا الفريق حتى نقم الفريق العدناني على هذا الجاه والسلطان .

فلما مات يزيد وتنازل معاوية الثاني لجأ فريق العدنانيين الى ابن الزبير ينصرونه ، ويدافعون عنه لينزعوا السلطة من ايدي القحطانيين . وجمع جنوده من القيسية ليزيل به عرش اليمنية في الشام . والتقى بجيوش مروان ومن ناصره من اليمنية في معركة مرج الراهط في يوليو ٦٨٤ م . وانتهت المعركة بفوز ساحق لمروان وأعوانه القحطانيين، واستئصال اصحاب الضحاك والمصريين ، وقويت بذلك يد مروان في الشام ، وبقي عليه ان ينازل ابن الزبير في الميادين الاخرى .

غير ان المنايا عاجلت مروان في سنة ٦٨٥ م قبل ان يكمل عمله ، وترك ابنه عبد الملك خليفة بعده يليه في الخلافة عبد العزيز بن مروان . وكان على عبد الملك ان يستخلص الخلافة لنفسه من ابن الزبير .

١٤

عبد الملك وابن الزبير

في موقعة مرج الراهط تدهورت قوة ابن الزبير في الشام إذ سقطت دمشق في يد مروان واستولى على ما في بيت المال من أموال الامبراطورية الاسلامية. فلما تولى عبد الملك بعد أبيه استخدم هذه الاموال الطائلة بجدارة في حربه مع ابن الزبير وكان على عبد الملك ان يستولي على قنسرين التي كان يحكمها زفر ابن الحارث الكلابي إلا انه كان مشايعاً لابن الزبير. فحاصره عبد الملك ثم ما لبث ان استسلم زفر وخرجت جموعه مع عبد الملك لمحاربة مصعب بن الزبير في العراق.

واستطاع مصعب أن يجمع عدداً كبيراً من العراقيين لملاقاة عبد الملك وحاول عبد الملك ان يستميل مصعب الى جانبه وأغراه بامارة العراق ورفض مصعب عرض عبد الملك، وتقدم الجيشان الى القتال إلا ان الحرب بينهما انجلت عن مقتل مصعب بن الزبير سنة ٦٩١ م وانتصار عبد الملك. وتضاءلت

امبراطورية عبد الله بن الزبير الى ما تشمله الجزيرة العربية . فأرسل عبد الملك الحجاج بن يوسف لمقاتلة ابن الزبير . ولجأ عبد الله الى مكة . وهناك حاصره الحجاج حتى ضيق على أنصار عبد الله الخناق ، فخرجوا منـــه الى صفوف الحجاج ، وأخيراً قتل ابن الزبير ، وأرسل رأسه الى عبد الملك بعد ان مثل الحجاج بجثته في أكتوبر سنة ٦٩٤ م .

ولنا ان نتساءل كيف حاقت الهزيمة بابن الزبير بعد ان كان خليفـة على اكثر اجزاء الامبراطورية الاسلامية . ولم تخرج عن بيعته الا اجزاء قليلة في الشام مثل حسان بن مالك الكلبي الذي كان على فلسطين . ولكن مع ذلك انهزم ابن الزبير ، وكانت من اسباب هزيمته أنه لم يجعـل للنزاع بين الشاميين والعراقيين حساباً صحيحاً ، ولم يقدر قيمة هذا النزاع ، فجعل المدينة عاصمته بدلاً من ان يخرج الى احد هذين المصرين . وبذلك شعر كلا الطرفين بأنه لن يكون له من الامر شيء . وانما ستكون المدينة محل الحـل والعقد ، ولهذا فقد انضم الشاميون الى مروان ، وتخاذل العراقيون عن نصرة مصعب . وكان ابن الزبير محارباً لا يشق له غبار ، إلا انه لم يكن رجل سياسة ، فقد رفض عرض حصين بن نمير ليذهب الى الشام ، ولم يستخدم الأموال التي وصلت اليه في اكتساب قلوب الناس ، بل أبقاها في خزائنه . ثم إنـه قبع في الحجاز وهو أقل البلاد خراجاً ورجالاً فقدهاجر العرب الى الثغور من عهد ابي بكر ، وكان عبد الملك يغري زعماء العشائر بالعراق بالإمارات والاموال حتى اشترى منهم عدداً كبيراً ، فلما التحم الجمعان تناقص جنود مصعب وتخاذل الناس . وفي ذلك الوقت كان الزبيريون غرضاً لهجمات الخوارج شرقي العراق وكان قائــد الزبيريين ضد الخوارج المهلب بن ابي صفرة . وكان أحسن قائد لدى مصعب ولكنه شغـــل بحرب الخوارج ، وبذلك انقسم جنود مصعب الى

جبهتين : واحدة تحارب الامويين ، والثانية تدفع هجوم الخوارج . وقد كان عبد الملك في موقف لا يحسد عليه إذ كان يخشى هجوم الروم براً وبحراً، ولكنه عمد الى عقد معاهدة عدم اعتداء مع الروم ورضي ان يدفع لهم جزية اسبوعية تمكن من دفعها لما وجد من اموال طائلة في خزينة دمشق ، ولم يكن في استطاعة مصعب أن يرشو الخوارج كما فعل عبد الملك مع الروم. ولم يمض ابن الزبير لمحاربة عبد الملك بجيش موحد ، بل كان جنوده مقسمين : بعضهم في مصر وجماعة في الشام وآخرون في العراق ، وجيش في الحجاز ، بينما خرج اليه عبد الملك بقضه وقضيضه واستطاع أن يهزم هذه الجيوش المتفرقة واحداً بعد الآخر .

وزعامة ابن الزبير ليست بالعميقة الجذور ، فاننا نعرف ان العرب التفوا حول زعامة بيتين قرشيين كبيرين هما بنو امية وبنو هاشم بعد ظهور النبي . فلما انتهى عهد عمر بن الخطاب ظهر هذا التحزب مرة اخرى في ايام انتخاب عثمان بن عفان ، وانتصر البيت الاموي على الهاشمي ، ثم ما لبث ان تعادلت الكفتان في الصراع بين علي ومعاوية حتى تم تنازل الحسن لمعاوية . اما ابن الزبير فقد كان ابعد ما يكون عن ان يرث مجداً سياسياً ، وكان يمثل اكثر ما يكون فئة الانصار من ذوي الورع والقرب من قبر النبي (ص) بينما كان عبدالملك يمثل مصالح الشاميين وسلطة القحطانيين على الامبراطورية الاسلامية.

ولا ريب في ان اقتطاع الزبيريين العراق من قائد الشيعة المختار كان له اسوأ الاثر في نفوس الشيعة ، فلو عقد ابن الزبير حلفاً مع المختار لتحسن موقفه اكثر ، ولم يكن للعلويين في ذلك الوقت زعيم يمثلهم إذ كان علي زين العابدين ابن الحسين ما يزال طفلاً .

وكان من نتائج هزيمة الزبيريين ان فقدت المدينة آخر فرصة لها لتكون عاصمة الامبراطورية الاسلامية وفقد الانصار اهميتهم كجماعة تـدير سياسة الدولة ؛ وانتقلت السلطة الى دمشق مرة اخرى تحت زعامة بـني الحكم ، وبقى العراق إمـارة تدار سياسته من دمشق ، وبذلك توحدت الدولة الاسلامية مرة اخرى ، وانتهت الحروب الداخلية ، واصبح من الممكن للدولة الآن ان تتفرغ للفتوحات شرقاً وغرباً ، وتقضي على شوكة الخوارج التي قويت وان تدب حياة السلم في كل البقاع فتدخل الحضارات والعلوم الأجنبية الى العرب لينتفعوا بها .

١٥

الخلافة الأموية

وكما وجد معاوية الامبراطورية الاسلامية مفككة الأوصال بسبب الحروب الأهلية يكثر فيها التنازع بين العناصر السياسية المختلفة ، كذلك وجدها عبد الملك ، وكان عليه ان يعيد الى منصب الخليفة هيبته وقوته ، ويركز إدارة البلاد في يد واحدة ، ويوحد سياسة الدولة ، وقد فعل ذلك بأن اتخذ من إخوانه أعواناً له في الحكم فارسل عبد العزيز بن مروان الى مصر ، وغرب افريقيا حاكماً عليهما يصد غارات البربر ويوسع الحدود ، ويدير البلاد. وعين بشر بن مروان على العراق والمشرق ليستمر في الفتوحات وليحطم قوة الخوارج التي تفاقمت عند اشتغال العراق والشام في الحروب الأهلية . وجعل عبد الملك المهلب بن أبي صفرة قائداً على العراقيين ليتولى حرب الخوارج . وكان على المهلب ان يطيع بشر بن مروان . وولى الخليفة الحجاج بن يوسف على الحجاز لما آنسه فيه من شدة وقسوة حتى يحطم روح

المقاومة في المدينة ومكة . وسار الحجاج في ارض الحجاز سيرة لا تعرف اللين وأذلهم وقسا عليهم حتى ضجروا منه ، ولم ينقله منهم عبد الملك إلا عندما خلا العراق بوفاة بشر بن مروان .

نظم عبد الملك كذلك شؤون الدواوين والمالية لما خاف من تلاعب الموظفين الأجانب في الدولة ، فقد كان كل الكتبة والمحاسبين في سوريا ومصر من الروم المسيحيين . وكانت لغة الدواوين فيها اليونانية . كما كانت الدنانير المستعملة في الامبراطورية الاسلامية هي الدنانير البيزنطية في الغرب والفارسية في الشرق وخشي عبد الملك من انهيار الادارة اذا تلاعب هؤلاء الأجانب ولذلك عمد الى تعريب الدواوين والاستغناء عن الأجانب ، وقد تم ذلك بنجاح عظيم . وفي العراق حذا الحجاج حذو الخليفة فأمر بتعريب الديوان من الفارسية الى العربية ، واستغنى عن الكتبة والمحاسبين ، وعين بدلاً منهم موظفين من العرب ، وكذلك ضرب دنانير عربية بدلاً من الفارسية ، وبهذا التغيير الشامل في جزئي الامبراطورية تم تعريب دواوين الحكومة ، ووجد العارفون بالحساب والكتابة من العرب عملاً يدر عليهم رواتب وأرزاقاً كما أمنت الدولة شر الأجانب .

وترك عبد الملك نظام الضرائب والجزية وغيرها لعماله في الولايات المختلفة يجمعونها حسب مستوى الحياة في كل إقليم ، وكان بعض العمال كالحجاج لا يعفي المسلمين من غير العرب من دفع الجزية بل كان يجمعها منهم حتى يكثر من دخل الدولة . وكان كثير من أهل البلاد المفتوحة خصوصاً من العمال والفلاحين يعتنقون الدين الاسلامي ولو اسميا ليتهربوا من دفع الجزية ، وهؤلاء من المؤلفة قلوبهم . وكان أبناؤهم في اغلب الأحيان ينشأون نشأة اسلامية ، ويفقدون دين آبائهم . بيد ان الحجاج لم يعفهم من الجزية ولذلك

المسلم لم يدفع جزية في الايام قبل عهد عبد الملك وكان عدد المسلمين في ذلك الزمن كبيراً جداً

اما عندما جاء عبد الملك فأمر بتعد

فقد قل عدد الذين دخلوا في الاسلام في هذا الجزء من العهد الأموي . وكان عبد الملك قد وعد المحاربين من أهل العراق بمضاعفة رواتبهم إن هم انضموا الى صفوفه وهجروا ابن الزبير فلما جاء الحجاج ألغى هـــذه الزيادة خشية استنزاف بيت المال ووجد معارضة من العراقيين الا انه هدد المعارضين بالقتل وأجبرهم على السكوت .

وكان الخوارج أهم مـا يقض مضجع الخليفة إذ ان قوتهم في العراق كانت خطرة . وكان المهلب ما يزال يحاربهم ليبعدهم عن حدود العراق، والعراقيون يتخاذلون ويتهربون من القتال أيام بشر الذي لم يكن يحب المهلب . فلما صار الحجاج أميراً على العراقيين قبض على زمام الأمور بحزم وقسوة فقتل كل من اعتذر عن الخروج الى قتال الخوارج من رجـال البصرة والكوفة حتى كانت الأمداد تهرول الى المهلب . وتحت إمـارة الحجاج على العراق انتظم الكفاح ضـد الخوارج حتى تحطمت قوتهم بيد المهلب والحجاج . وبذلك تم استئصال آخر طائفة معادية داخل الامبراطورية الاسلامية .

وكان عبد الملك يود ان يولي ابنه الوليد بعد أخيه عبد العزيز بن مروان، ولكن عبد العزيز رفض واعتذر لعبد الملك ، ثم ما لبث عبدالعزيز أن مات فتمت البيعة للوليد بن عبد الملك ثم لأخيه سليمان بن عبد الملك في حيـاة والدهمـا عبد الملك . وبمساعدة الحجاج في العراق تولى الوليد دون معارضة تذكر ، وسار سيرة ابيه في الاصلاح ، وكان عهده مشهوراً بالانشاء والتعمير، فالمساجد الكثيرة بنيت في ايامه ؛ وحفرت القنوات والجسور والآبار في بقاع الامبراطورية . وبنى المستشفيات للمرضى والملاجىء للمجذومين وذوي البرص والعاهات ، وكفاهم شر الفاقة وضمن لهم ارزاقهم من بيت المـــال ، كما فتح

المدارس وشجع على التعليم . ولم يصادف عهده أية معارضة حتى مات ، وتولى سليمان ، وفي خلافته حدثت بعض الثورات إلا انها لم تكن عنيفة وأساس تلك المصادمات تشجيع الحجاج للوليد ليولي الخلافة ابنه بعد إقصاء سليمان . ومات الحجاج قبيل موت الوليد ، ولما يتم اقصاء سليمان فآلت اليه الخلافة . وعزم سليمان على التنكيل بآل الحجاج وبقواده الذين وقفوا يعضدونه في طلبه للوليد من امثال قتيبة بن مسلم الباهلي ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، وحاول قتيبة ان يستدر عطف سليمان وعفوه فلم يفلح ، وثار على الخليفة ، ولكنه لم يفلح إذ قتله بعض جنوده . وقبض على محمد وسجن ، وعين يزيد ابن المهلب بن ابي صفرة على خراسان فأغنى أحسن الغناء ، وكان خير سلف لقتيبة في فتوحاته في المشرق . (وفي خلافة سليمان قلّت الأموال التي كانت تجبى من الأهلين خصوصاً من العراق وخراسان حيث كان يزيد بن المهلب اميراً ، وكان يزيد يعلم ان الضرائب التي فرضها الحجاج فادحة ، وانها اثارت النفوس على بني أمية ، (ولهذا فقد خفض بعضها حتى لا يثقل على الناس كما اكتسب بذلك حبهم .

ولم يكن لسليمان عقب يخلفه إذ مات ابنه ايوب قبله ، وكان اخوه مسلمة ابن عبد الملك يحارب في بلاد الروم ولا يعرف ان كان حياً ام ميتاً . ورأى سليمان بعد استشارة رجاء بن حيوة ان يولى عمر بن عبد العزيز بن مروان في سبتمبر سنة ٧١٧ م على ان تكون الخلافة بعده ليزيد بن عبد الملك .

(وعمر صاحب سياسة تختلف عن سلفه من الامويين فهو قد نشأ في المدينة بين القراء والتابعين ، ووقع تحت تأثيرهم حتى انه لما عينه الوليد والياً على الحجاز لم يقبل المنصب إلا بعد ان استشار العلماء في المدينة ان كان ذلك

المنصب مما يتعارض مع الدين. فلما تولى الخلافة رأى ان ينهي الخلاف العنيف بين الامويين والهاشميين ويهادن العلويين فمنع لعن علي في المسجد تلك اللعنة التي بدأها معاوية واصبحت بدعة في الامبراطورية الاسلامية ، ثم انه اعاد لآل علي ارض فدك التي خلفها النبي بعد موته، وكان الخلفاء من ايام ابي بكر قد جعلوها ملكاً للدولة استناداً على قول النبي « نحن معاشر الانبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » وكان لهذه المهادنة اثرها في قبول طائفة العلويين خلافة عمر .

ورأى عمر ان الجزية ما زالت تؤخذ ممن اسلم من غير العرب وكان في ذلك اسوأ الضرر في تشجيع غير المسلمين لاعتناق الدين ، وكان يرى ان انتشار الدين اهم من امتلاء الخزائن بالأموال وقد شجع ذلك عدداً اكبر من المسيحيين على اعتناق الاسلام رغبة في التهرب من الجزية ، واثر هذا على ميزانية الدولة تأثيراً كبيراً اذ قلت الموارد وانخفض الدخل انخفاضاً خطيراً ، وعمد الى الطريقة التي كان يتبعها عمر بن الخطاب فجعل كل الغنائم من الفتوحات ملكاً للدولة لا للجنود والافراد ، غير ان الفتوحات في زمنه لم تجد منه تشجيعاً اذ كان يشعر بأن الامبراطورية في حاجة الى استجمام وتنظيم بيتها من الداخل وتقوية اركانها بفترة من السلم .

وبالرغم من حب عمر لحرية الاديان إلا ان معاملته المسيحيين كانت تختلف عن معاملة سابقيه فقد كان يأمر بأن يلبسوا ملابس تختلف عما يلبسه المسلمون فقد منعهم ان يلبسوا العمائم وجز نواصيهم ولم يسمح لهم باقامة كنائس جديدة ، وتعتبر سياسته هذه ثورة على القواعد السياسية التي كان يستخدمها معاوية ومن بعده من خلفاء بني امية .

ولما كان الخلفاء من قبل مثل عبد الملك والوليد وسليمان قد اطلقوا الحرية الكاملة لعمالهم ليتصرفوا في الأموال المخزونة لديهم مثل الحجاج ثم يزيد ابن المهلب في ايام سليمان فقد رأى عمر أن يكون هو المتصرف الوحيد في تلك الأموال، لذلك أخذ يحاسب العمال الأحياء من العهود السابقة، خصوصاً يزيد بن المهلب، على الأموال التي جمعوها، وحبس يزيد بن المهلب حتى يؤدي ما عليه من أموال، وكان سبب هذا الاختلاف يرجع الى أمر مهم هو أن العرب في أيام الخلفاء الأمويين السابقين كانوا ينقسمون الى طائفتين كبيرتين : المضرية والقحطانية، وكان عمال الامويين يحاولون اكتساب الناس بشتى الوسائل ومن بينها الانعام عليهم بالمال، إلا أن موقف عمر كان مختلفاً، فهو لم يكن صاحب اسرة مالكة حتى يؤسس دعائم الملك لها، فقد عرفنا ان سليمان جعل الخلافة بعد عمر ليزيد بن عبد الملك، هذا اذا أغفلنا زهد عمر في الخلافة وفي توليتها لذريته، وقد شاهدنا ايضاً كيف استطاع عمر أن يبعد عنه عداوة الهاشميين والعلويين بايقاف سب علي في المنابر، وإعطاء بني علي مطالبهم من إرث. لهذه الأسباب لم ير عمر ما يدعو الى اطلاق أيدي عماله في أموال المسلمين، ومن هنا ظهرت دقته في محاسبة العمال حتى يحبس يزيد بن المهلب لاعتقاده بأنه استولى على تلك الأموال في حروبه من المغلوبين ليدل على مكانته كفاتح مظفر. وكان كتاب يزيد قد أرسل الى سليمان إلا أنه وصل بعد وفاة سليمان ووقع في يد عمر الذي لم يقصر في محاسبة يزيد .

لم يهادن عمر العلويين فحسب بل اتصل ببقية الخوارج وأخذ يفاوضهم في عقد هدنة وقد نجح في ايقاف المناوشات بينه وبينهم. وتمت الهدنة وارتاحت الدولة من هجومهم .

ومضى عمر في إكمال اصلاحات الوليد فأنشأ المطاعم الشعبية للفقراء وأبناء

السبيل ، كما أصلح من حال السجون وجعل بعضها خاصاً بالنساء .

وكان من سياسة عمر ان يبطل العطالة بين المسلمين العرب الذين كانوا يجدون رزقهم من الأموال التي تصرف عليهم من بيت المال إذ شاهد خطر البطالة واعتماد الناس على غيرهم فحاول ان يدفعهم الى العمل وذلك بأن يصرف كل ما في الخزائن حتى لا يبقى فيها إلا القليل حتى اذا قل دخل الناس من معاشاتهم من الدولة اضطروا الى العمل فيقل التواكل على الدولة . وقبل ان تجدي سياسة عمر أكلها مات راعيها في ٩ فبراير سنة ٧٣٠ عن عمر لم يبلغ الاربعين .

وبوفاته تولى الخلافة يزيد بن عبدالملك حسب ما جاء في وصية سليمان . ورث يزيد خزينة فارغة من عمر بل انه ورث ايضاً دولة موحدة قد توقفت المنازعات فيها ، غير ان يزيد ومن جاء بعده من بني أمية لم يستطيعوا ان يعيشوا عيشة عمر فأعادوا كثيراً من الضرائب والجزية التي سبق ان ألغاها عمر ومن اهمها الضرائب التي كان يدفعها الموالي وأعفاهم عمر منها ، وكان من أثر ذلك ان كره الموالي خلافة الامويين بعد ذلك . وبالرغم من ان عمر قد نجح في توحيد الدولة الاسلامية تحت ظل الامويين ، إلا ان هذا التوحيد طرأ عليه تغيير كبير بسبب عدم وجود سياسة موحدة يسير عليها الخلفاء في داخل الدولة . وقد عرفنا الانقسامات العصبية التي كانت تسيطر على الدولة بين اليمنيين والعدنانيين ، وكان يزيد بن عبد الملك من الكارهين لليمنية لأن أمه كانت من المضريين ، وكان يمقت يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدى اليمني لأنه عذب آل ابي عقيل اخوال يزيد بن عبد الملك وذلك في خلافة سليمان ، فلما آلت اليه الخلافة اندفع في الأخذ بثأرهم ، وخرج عليه يزيد بن المهلب ومن معه من جند في المشرق ، ولكنه ما لبث ان حاقت بجنده الهزيمة

وقتل . وأمعن الخليفة في الفتك بآل المهلب حتى كاد يحصدهم .

وفي خلافة يزيد بدأ التصدع يصيب بيت بني أمية اذ كان بعض الامويين غير راضين عن سياسة يزيد التي عدّوها خروجاً عن سياسة عمر الرشيدة التي كانت من اسباب تثبيت خلافتهم ، وخلف يزيد بن عبدالملك أخوه هشام سنة ١٠٦ الى سنة ١٢٦ هـ (٧٢٤–٧٤٣م.) ، ولم تكن خلافته دون ثورة داخلية إذ ثار عليه زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي الذي تنسب اليه جماعة الزيدية ، وذهب زيد الى الكوفة ليثير الناس على بني امية ولكن هشاماً ارسل اليه ابن هبيرة الذي استطاع ان يهزم جماعة زيد ثم أسره وقتله اذ كان ابن هبيرة كارهاً للعلويين ، ولكن هشاماً غضب على ابن هبيرة وعزله عن الكوفة . وجاء الوليد ابن يزيد بن عبد الملك الى الخلافة في ١٧ ابريل ٧٤٤ م (١٢٦ هـ) وعرف بمجونه واستهتاره ، ورمي بالفكر والفجور . وكان اول من ثار عليه أهله من بني مروان فهجموا عليه وقتلوه ، وكان مقتل الوليد ايضاً نتيجة لسياسته ضد اليمنيين إذ قتل خالد ابن عبدالله القسري وكان من زعماء اليمنية .

ولما قتل الوليد بويع ليزيد بن الوليد بن عبد الملك فما لبث في الخلافة ستة أشهر حتى مات وتولى بعده ابراهيم بن الوليد وبقي خليفة ستة أشهر ثم هرب من دمشق عند قدوم مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم وهو آخر خلفاء الأمويين .

وكان مروان الثاني من أمة كردية قضى فترة طويلة مع والده الذي كان أميراً على الجزيرة وأرمينية ، واشترك مروان في القتال ضد البيزنطيين ، وكان قائداً فذاً وإدارياً ممتازاً كسب خبرة طويلة في حروبه

في القوقاز ، فلما علم مروان بمقتل الوليد وخلافة يزيد لم يعترف بتلك الخلافة في دمشق إلا أنه لم يشأ أن يمكث فيها خوف الانقلابات السياسية بين الامويين ، فذهب الى حران في العراق واتخذها عاصمة له وقرب اليه القيسية ، وكان هذا مما اثار الشاميين عامة والكلبيين خاصة واليمنيين على مروان اذ شعروا بأن السلطة قد نزعت منهم ، فثاروا ولكن ثورتهم اخمدت ثم تقدم مروان الى بقية مدن الشام التي كان يقود جيوشها سليمان ابن هشام بن عبد الملك ، فاستطاع مروان ان يهزم سليمان وفتح مدينة حمص وبعلبك والمقدس وغيرها من مدن الشام واستقرت حالة خلافته فيها (ديسمبر سنة ٧٤٤) بحد السيف ولكن بعد ان انقسم جند الشام الذين كانوا اكبر عون لبني امية الى قسمين : جماعة مع مروان وأخرى مع سليمان بن هشام .

وانتهز الخوارج هذه الفرصة فقاموا بهجوم عنيف بقيادة الضحاك بن القيس الشيباني على العراق ، وافتتحوا الكوفة وفر واليها الاموي عبدالله بن عمر ابن عبد العزيز الى واسط ، ثم اضطر الى التسليم والمبايعة للضحاك على انه الخليفة كما انضم اليه سليمان بن هشام ايضاً ، واستخلص الضحاك عدداً من مدن العراق وقويت شوكته ، وكان مروان في هذا الوقت مشغولاً بأهل حمص والشام حتى اذا انتهى منهم سار بجيوشه لملاقاة الخوارج والتقى بهم في سبتمبر سنة ٧٤٦ في معركة عنيفة قتل الضحاك خلالها ، ثم بويع من بعده لسعيد بن بهدل الخيبري الذي قتل بعد ان كاد يهزم مروان ، ونجح مروان في دحر الخوارج واقصائهم عن العراق فرحلوا الى سجستان خوفاً من جيش مروان الذي كان تحت قيادة يزيد بن عمر بن هبيرة .

ولم يكن الضحاك هو الوحيد الذي حارب مروان بل قام أبو حمزة

الخارجي ايضاً من حضرموت بجماعة وبايعوه على قتال مروان ، ثم جاء ابو حمزة الى مكة وقت الحج ودخلها بدون قتال ، ثم التقى بعد ذلك في طريقه الى المدينة بجنود أرسلها والي مروان ، ودارت معركة انتصر فيها أبو حمزة ثم دخل المدينة وسار منها الى الشام فبعث اليه مروان بأربعة آلاف رجل التقوا به في وادي القرى وانتهت المعركة بقتل ابي حمزة الخارجي وانهزام جيشه ، وبذلك عاد الحجاز مرة ثانية الى دولة بني أمية .





١٦

الفتوح بعد عمر الى الأمويين

مات عمر بن الخطاب وما تزال الفتوحات في بلاد الفرس وامبراطورية الروم غير تامة اذ كان يزدجرد الثالث كسرى الفرس يعد الجنود لاستخلاص بلاده من أيدي المسلمين . غير أن الجيوش الاسلامية أخذت في تقدمها نحو الشرق ، فمن الكوفة كانت تسير الجنود نحو الري وأذربيجان ، ومن البصرة كانت الجنود الاسلامية تتجه الى بلاد فارس وخراسان والسند ، وكان اكثر عمال عثمان نشاطاً في توجيه الضربات الى فارس عبد الله بن عامر ، وفي ولايته قتل يزدجرد في آخر مواقعه ، وكان لموته أثر في إضعاف شوكة الاكاسرة ودولة فارس . وكان الاحنف بن قيس من كبار القواد الذين توغلوا في شرقي آسيا ففتح طخارستان ومرو . وهزم الوليد بن عقبة جيوش أذربيجان وضمها الى الامبراطورية الاسلامية .

لما قتل عثمان وحدث الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية لم يستطع المسلمون ان يقوموا بفتوحـــات جديدة بل أخذوا يحمون الثغور ويدافعون عن البلاد ضد المغيرين ؛ وعقد معاوية هدنة مع الروم دفـع اليهم فيها المال ، وحمل على الجبهة الشرقية بجيوش تحت إمرة زياد بن أبيه . فلما استتب الحال لمعاوية واستعادت الدولة الاسلامية أمنها الداخلي وجه معاوية الجيوش شرقـاً وغرباً ، وكان اكبر هم لمعاوية أن يضرب دولة الروم الضربة القاضية حتى تدين كما دانت فارس ، ولذلك قـام بمحاولات عديدة لفتح القسطنطينية ولكنه لم ينجح . وكان معاوية منذ ولاه عمر على سوريا — يتوق لفتح القسطنطينية ولذلك رأى ان يسيطر على البحر الابيض المتوسط الذي كان الروم يسيطرون عليـــه بأسطولهم الضخم . ولم يكن للعرب أسطول بحري لأن طبيعة بلادهم الصحراوية لم تمكنهم من ايجـاد الخشب اللازم لعمل السفن . وكان الأسطول البيزنطي يهدد شواطىء الشام ومصر حيث كان المسلمون حكاماً . لذلك رأى معاوية ان يبني اسطولاً ليقاوم القوات البحرية الرومية . غير ان عمر بن الخطاب كان يخشى ذلك لأن العرب لم تكن لديهم الخبرة في الأساطيل والحروب البحرية وكان يعتبر دولة المسلمين برية فحسب .

فلما تولى عثمان الخلافة استطاع معاوية أن يقنعه بوجوب بنــاء اسطول بحري يدافع عن شواطىء الشام ومصر التي كانت مسرحاً لغزوات الاسطول البيزنطي فقبل عثمان على أن يكون البحارة متطوعين ، فعمد معاوية الى بناء أسطول من الأشجـار الكثيرة المناسبة المنتشرة في بلاد الشام ، كما شاركه عبد الله بن سعد بن ابي السرح في بنـاء اسطول آخر في مصر ، ونشب اول قتال بحري بين المسلمين والروم في موقعة ذات الصواري حيث قـام معاوية وعبد الله بهجوم موحد على الاسطول البيزنطي سنة ٦٥٥ م الذي كان بقيادة

الامبراطور كونستانس الثاني الذي نجا من الموت بأعجوبة .

ومنذ تلك المعركة استطاع الاسطول الاسلامي أن يكون المسيطر على شرقي البحر الابيض المتوسط ، وابتدأ المسلمون بعد ذلك يهاجمون الجزر المنتشرة في البحر فتارة على صقلية وتارة على قبرص التي سقطت اخيراً في يد معاوية ، وبذلك خسر الاسطول البيزنطي إحدى قواعده الحربية الهامة سنة ٦٤٩ م . غير أن معاوية لم يستطع ان يتقدم في فتوحاته بعد ذلك نسبة الى الصراع الذي حدث بينه وبين علي بن ابي طالب .

وكان لعبد الله بن سعد اليد الطولى في توسيع رقعة الدولة نحو شمال افريقيا حيث كان المسيحيون يسيطرون عليها ، فقد استولى عبد الله على طرابلس وساعده على ذلك فتح عمرو بن العاص لبرقة ومقدرته على اخضاع قبائل البربر المجاورة . وتمكن عبد الله من امتلاك قرطاجنة وتوغل في بلاد البربر الوثنيين وقبل منهم الجزية أسوة بغيرهم من البربر المسيحيين .

وفي خلافة معاوية تمكن القائد عقبه بن نافع من إرساء قواعد ثابتة لدولة الاسلام في شمال افريقيا إذ تقدم عقبة سنة ٦٧٠ م ، وبمساعدة بعض قبائل البربر أزال قوة المسيحيين هناك (وأسس مدينة القيروان الحربية ليلجأ اليها كلما اشتد هجوم اعدائه ، ثم استدعي الى الشام حتى أعاده يزيد بن معاوية في سنة ٦٨٢ م فاستمر عقبة في زحفه حتى وصل الى الشواطىء الغربية لإفريقيا وهنالك لم يجد أرضاً يسير عليها فعاد ليعد ادارة البلاد المفتوحة من مركزه العام بالقيروان ، إلا ان البربر بمساعدة البيزنطيين المنتشرة قواعدهم الحربية في افريقيا ثاروا على عقبة الذي خرج لملاقاتهم بجيش صغير سنة ٦٨٣م ولكن استطاع البربر ان يبيدوا التجريدة العسكرية وقتلوا قائدها عقبة مع رجاله جميعاً .

ومن أهم ما قام به معاوية لفتح القسطنطينية أنه نظم الهجوم على عاصمة الروم فاتخذ الشواتي والصوائف وصار يبعث الجيوش صيفاً وشتاء لتهاجم القسطنطينية ، وقد نجحت هذه الجيوش مرة واحدة في محاصرة العاصمة الرومية المنيعة ولكنها لم تستطع فتحها بالرغم من تعاون الاسطول العربي مع القوات البرية ، واستعمل الروم سلاحاً فتاكاً سماه العرب نار الإغريق فاحترقت السفن الاسلامية واندحر العرب براً وبحراً .

وتوقف التوسع الاسلامي فترة بسبب القلاقل والثورات التي حدثت بعد تنازل معاوية الثاني حتى ايام الوليد بن عبد الملك الذي ورث دولة قوية من والده عبد الملك ساعدته على الاستمرار في الفتوح . وكان الفتح في خلافة الوليد يسير شرقاً تحت قيادة قائدين عظيمين هما قتيبة بن مسلم ، ومحمد بن القاسم الثقفي وفي المغرب كان موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد قد سلكا طريقاً عظيماً في الفتح .

ولى الحجاج بن يوسف قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان وترك اليه أمر التقدم الى نهر جيحون، واستطاع قتيبة أن يستولي على مملكة الصغانيان، وكفتان وآخرون وشومان ، وبلاد الترك ، والصغد حتى بلغ بخاري . وكان قتيبة من أحسن قواد الأمويين رأياً وقيادة في الحروب ، وقد دانت له كثير من الممالك الشرقية ، وكان ملوك الشرق يخافون مقدرته الحربية وعرف بينهم بأنه ملك العرب ، ولشدة بأسه كان كثير من الملوك يعمد الى عقد صلح بينه وبينهم خوفاً من الهزيمة . وتم على يده فتح خوارزم وسمرقند ، وعين في كثير من الاماكن حاميات حربية لإخضاع الثورات التي كثيراً ما كانت تقوم في تلك البقاع . وبلغ قتيبة حدود الصين ، وحاول ان يخضع ملكها ولكن ذلك استعصى عليه وقبل قتيبة بعض الجزية من ملك الصين، وفي هذا الوقت

توفي الوليد، وبويع لسليمان الذي كان حاقداً على قتيبة لأنه من قواد الحجاج؛ فخاف قتيبة على منصبه وحياته، ولم تسفر اتصالاته بسليمان لإقراره وتأمينه، فخلع سليمان ، وانتهز بعض خصومه في الجيش غرة فاغتالوه وبذلك خسرت الدولة الاسلامية قائداً من الطراز الممتاز .

وخرج محمد بن القاسم الثقفي بعد أن أمده الحجاج بالجنود الى ناحية نهر السند ففتح سهبان ومهران والتقى بجموع ملك السند « داهر » الذي كان يستعمل الفيلة في القتال ، ولكن محمد بن القاسم استطاع أن يقتل « داهر » واستولى على بلاده، وأجبر الناس على دفع الجزية وقبول حكم الدولة الاسلامية وما زال في فتوحاته حتى بلغه موت الوليد وخلافة سليمان الذي أمر يزيد بن أبي كبشة بالقاء القبض على محمد فأخذ محمد وهو مقيد الى العراق حيث عذب الى ان مات .

وتقدم الفتح الاسلامي كثيراً نحو شمال افريقيا بقيادة موسى ابن نصير الذي انتهى به الفتح الى احتلال الأندلس وكانت تعاني اضطرابات سياسية بسبب النظام الاقطاعي وعدم توحيد البلاد مما أضعف من قوتها السياسية والحربية . وكان رجال الكنيسة يسيطرون على كثير من أراضي البلاد ولهم سلطات سياسية ضخمة على السكان ، واضطهدوا اليهود الذين كانوا في الاندلس فاكتسبوا عداءهم ، وانتهز المسلمون هذه الفرصة فعبأ موسى جيشاً من العرب ومسلمي البربر للعبور الى اسبانيا وعين طارق بن زياد قائداً على ذلك الجيش بعد أن تأكد من ضعف حالة الأندلس بما أرسله اليها من حملات استكشافية قبل الفتح . وعرف موسى ان اسبانيا على جرف هاو فأرسل طارقاً اليها بعد أن كانت طنجة قد استسلمت من قبل .

أبحر طارق بجنده من عرب وبربر حتى اذا بلغ جبل طارق أحرق سفنه

ثم حمل هو والجيوش على لذريق ملك الأندلس ، فانهزم الاندلسيون وقتل ملكهم ، وأخذ طارق يتوغل في فتوحاته بالرغم من اوامر موسى له بأن يقف حتى يدرس الحالة ويطمئن الى ادارة البلاد المفتوحة ، غير أن طارقاً خشي أن يتحد الاندلسيون وتقوى مقاومتهم ، فاستمر في فتوحاته ، ولحق به موسى وسار غرباً يفتح بلاد البرتغال وتمكنا اخيراً من الاستيلاء على كل بلاد الاندلس حتى جبال البرانيه على حدود فرنسا . وهنا أرسل الوليد بن عبد الملك أمراً الى موسى بالتوقف عن الفتح إذ كان موسى ينوي أن يسير شرقاً فيستولي على جنوبي اوروبا حتى يقتحم القسطنطينية . واستدعى الوليد قائده موسى الى الشام ومعه طارق بن زياد ، فلما وصلا الى دمشق علما بوفاة الوليد وخلافة اخيه سليمان بن عبد الملك . وكان الوليد يخشى من نفوذ موسى على شمال إفريقيا وإسبانيا ولذلك اراد ان يبقيه في دمشق . وكان سليمان يكره موسى لأسباب شخصية ولأنه كان يعتقد بأن موسى ينوي الاستقلال بفتوحاته في المغرب وما زال موسى في دمشق وقد قتل رسل سليمان ابنه عبد العزيز بن موسى الذي كان اميراً على اسبانيا بتهمة محاولة إثارة الفتن على الخليفة ، ومات موسى وهو شيخ مهدم في دمشق .

لم تزد الفتوح بعد ذلك كثيراً وكان اكبر هم الخلفاء ان يحطموا قوة القسطنطينية التي ما زالت منيعة بأسوارها وأسطولها غير ان ذلك لم يثمر ، وفي خلافة سليمان حاول مراراً ان يفتح العاصمة البيزنطية ، ولكن محاولاته باءت بالفشل ، وقد نجح العرب في فتح الاماكن التي كان فيها الروم حكاماً اجانب اذ استولوا بسهولة على مصر وطرابلس وشمال افريقيا والاندلس حيث كانت القوات الرومية ضعيفة ولكنهم فشلوا في اسقاط القسطنطينية التي فتحت في الدولة العثمانية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م .

١٧

أسباب سقوط الدولة الأموية

لو نظرنا الى الخلافة والطرق المختلفة التي اتبعت لاختيار الخليفة لرأينا انه لم تكن هناك طريقة واحدة متبعة في كل الحالات لان الدولة لم يكن لها دستور واضح في طريقة اختيار الخليفة ، فلما جاء معاوية رأى ان يولي الخلافة لابنه يزيد ولذلك عمد الى اخذ البيعة من كبار المسلمين ، وقد وجد معارضة من عبدالله ابن الزبير والحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر وغيرهم ، ولكن معاوية هددهم بضرب رقابهم ان عارضوا في البيعة ، ولذلك فقد خافوا من بطشه وقبلوا البيعة ليزيد ، وكان معاوية قد خدع الناس اول مرة. إذ قال لهم بأنه سيختار لهم خليفة ان هم رضوا حتى لا تصيب الدولة الاسلامية منازعات كما حدث من قبل ، فلما اعطوه هذا الحق ، نصب ابنه يزيد من بعده خليفة . وهنا طلب منه كبار المعارضين ان يختار رجلاً من غير ذويه او يختار ستة ليختاروا من بينهم ، او يتركها شورى بين المسلمين .

رفض معاوية ، وبرفضه اشتدت المعارضة للبيت الاموي وقد بيّنا كيف

ثار الحسين ، ثم بعد ذلك عبدالله بن الزبير على الدولة الاموية حتى كادوا ان يقضوا عليها . غير ان الدولة تماسكت في عهد مروان بن الحكم . واختار الناس من بعده خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد بن العاص ليكونا خليفتين بالتوالي . فلما حانت منية مروان عهد الى ابنه عبد الملك ثم من بعده عبد العزيز ابني مروان ولذلك فقد ثار عمرو بن سعيد على عبد الملك عند خروجه لابن الزبير ، وطلب عمرو الخلافة لنفسه . فعاد عبد الملك وعقد صلحاً معه على ان يعهد اليه ثم ما لبث ان اغتاله غدراً. وكان عمرو بن سعيد من البيت الاموي ، وهكذا تجد ان هذا اول تصدع في الاسرة الاموية اذ ثار احدهم على الآخر حتى اضطر الخليفة الى قتله بيده .

ولم تكن الطريقة التي سلكها مروان بالسليمة العواقب إذ ترك ولدين اوصى لهما بالخلافة وكان عبد الملك يحب ان يولي الخلافة لابنه الوليد غير انه كان مقيداً بوصية والده وقد حدث بينه وبين اخيه عبد العزيز بعض النفور لان عبد العزيز رفض ان يولي ابناء اخيه عبد الملك بعده ورأى ان يعطي ذلك لابنائه وكادت تنشب فتنة بين الاخوين عبد الملك وعبد العزيز لولا ما حدث من وفاة عبد العزيز قبل عبد الملك وبذلك آلت الخلافة الى الوليد . وهنا نجد ايضاً ان عبد الملك قد عهد لابنيه الوليد وسليمان بالتوالي فلما كادت خلافة الوليد تنقضي اشار بعض امراء الامصار على الوليد ان يعهد لابنه وكان من بين هؤلاء الامراء الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم الباهلي ، فأسرها سليمان في نفسه حتى اذا تولى الخلافة اذاق آل الحجاج مر العذاب ، واعاد يزيد بن المهلب الذي عذب بيد الحجاج لينتقم لنفسه من اعدائه ، كما اغتيل قتيبة بعد خلعه لسليمان واستمر البيت الاموي في خلافته على هذه الطريقة ، كل خليفة يعهد لاثنين من ابنائه ، وبطبيعة الحال فقد احدثت هذه الطريقة

تصدعاً في البيت الاموي وتحزباً ونفوراً . فانقسم على نفسه واخذ يثير الناس على بعضهم بعضاً .

وقد أحيى البيت الأموي نزعة العصبية الشعوبية بين المضرية واليمنية ، وكان النبي والخلفاء الاوائل قد ارقدوها في المهد حتى كادت تندثر وجعلوا الشعب العربي كله امة واحدة لا يؤثرون قبيلاً على قبيل في الادارة او القيادة، او القضاء ، إلا ان الحال تغيرت في العصر الاموي ، فمعاوية كان متزوجاً من بني كلب وهم من اليمانية ، وقرب لذلك الكلبيين وغيرهم من اليمنيين ، ووثق بهم ، وجعلهم يده على غيرهم من عرب الشمال حتى نقم المضريون على اليمنيين هذا التقريب ، ولذلك فقد حاولوا ان يجدوا زعيماً من بين ابناء علي بن ابي طالب حتى يستخلصوا له الخلافة من الامويين وينتهي نفوذ اليمانية في الدولة الاسلامية ، وقد ظهر هذا النزاع جلياً بعد موقعة مرج راهط بين اشياع مروان بن الحكم وهم من بني كلب ، وبين اشياع الزبير بقيادة الضحاك ، وانهزم الضحاك ومن معه من القيسية ، ومنذ ذلك الحين والقيسية تحاول ان تثأر لهزيمتها في تلك الموقعة وقد وجدوا ان الفرصة سانحة عند ما التقى عبدالله بن زياد والي الامويين على العراق بالمختار بن عبيد الثقفي الذي ارسله ابن الزبير ، فقد انتهز الفرصة عمر بن الحباب القيسي وكان على ميسرة عبيدالله ، فانضم بمن معه من جند الى المختار وهو ينادي (يا لثارات قتلى المرج) وحاقت الهزيمة بجند الشام وقتل عبيدالله .

لم يفتر هذا النزاع بين اليمنية والقيسية طيلة العهد الاموي ، فقد كان الوالي اليمني يعين كل اعوانه من اليمنية ، حتى اذا جاء قيسي لم يترك عاملاً من اليمنيين ، وكان عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي الوحيد الذي لم تأخذ سياسته هذا الطريق اذ استطاع ان يشعر العرب مرة ثانية بأنهم امة واحدة .

ولكن بعد موته قامت الفتنة مرة اخرى اذ خلفه يزيد بن عبد الملك . وكانت ام يزيد من ثقيف وهم مضريون ، وكان آل الحجاج بن يوسف (آل ابي عقيل) قد ذاقوا صنوف العذاب في خلافة سليمان بن عبد الملك الذي كان يكره الحجاج لانه اغرى الوليد بعزله عن ولاية العهد ، كما كان سليمان يميل الى آل المهلب بن ابي صفرة الذين عذبهم الحجاج بالرغم من بلائهم ، وكان على رأس المعذبين ايام الحجاج يزيد ابن المهلب ، وكال يزيد بن المهلب العذاب لآل ابي عقيل ، فلما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة خشي بن المهلب على نفسه واهله ، وكان من اليمنية فعزل يزيد بن عبد الملك الذي ارسل اليه اعظم قواده اخاه مسلمة بن عبد الملك وفي حروب دامية بين ابن المهلب ومسلمة تفانى فيها الفرعان العربيان ، انتهت الحروب بقتل ابن المهلب ، وفناء آل بيته ، وقد كان لهذه الفتنة اسوأ النتائج اذ اوغرت صدور اليمنيين على البيت الاموي اذ كان آل المهلب من ازد اليمن .

ولما تولى هشام بن عبد الملك خاف على الخلافة من القيسية الذين اخذ نفوذهم يزداد ، فقرّب اليه اليمنية وولى خالد بن عبد الله القسري العراق ، فاسترد الحزب اليمني سابق قوته فترة من الزمن ، ثم ما لبث هشام ان خافهم إذ كثر عماله من اليمنيين في المشرق ، فعزل خالد بن عبد الله عن العراق ، وغير الولاة الآخرين وألقى بهم في السجون؛ فأثار ذلك اليمانية وأخذت تعمل للتعجيل بإسقاط البيت الأموي ، خصوصاً أن الوليد بن يزيد عندما ولي الخلافة كان هواه مع المضريين لأن أمه منهم ، فلما ثار يزيد بن الوليد ابن عبد الملك على الوليد عاونه اليمنيون في ثورته وظهر الانقسام في البيت الأموي وقتل الوليد ، وتولى يزيد بعد ان أشعل الفتنة في الأسرة الأموية نفسها كما فعل سابقه حين صادر كل أموال هشام وحدد إقامة ذويه؛ ولم يترك

لهم شيئاً يقتاتون منـه ، ثم نفى ابناء هشام وحبس بعضهم وأذلهم . وطلب من خالد بن عبد الله القسري أن يبايع لأبنائه من بعده فلما اعتذر خـالد قتله الوليد ؛ فحقد عليه اليمنيون ؛ لذلك نصروا يزيد وأعانوه على الخلافة .

صـار النزاع في هذا الوقت مزدوجاً ؛ فليس هو بين اليمنية والقيسية فحسب؛ ولكنه كان كذلك بين افراد البيت الأموي حيث تعددت الأحزاب فيه ؛ وصار اكثر من واحد يطلب الخلافة لنفسه : فالوليد خليفة ؛ ويزيـد يثور عليه ليتولاها . ومروان بن محمد يسير من الشرق ليفوز بهـا حتى اذا مات يزيد غلب عليها وأصبح هو الخليفة؛ ولكن بعد ان صار الأمر متفاقماً؛ والأحزاب متعددة .

وكان من أكبر الأحزاب التي قوضت دولة الأمويين حزب الموالي والمسلمين من غير العرب . فقد كان الأمويون شديدي التعصب لعربيتهم لا يولون أمراً إلا لعربي؛ ولم يعفوا الموالي وغيرهم من الجزية ؛ بل كانوا يصرون على ان يدفع الموالي كأنهم غير مسلمين . وحقد الموالي على الأمويين هذه السياسة ؛ وأخذوا يغذون كل فتنة يمكن أن تغير موقفهم الاجتماعي والسياسي بعـد أن اصبحوا شركاء للعرب في الدين . وقد كانت حالة هؤلاء الموالي تسير من سيء الى أسوأ إذ اصبحوا البقرة الحلوب لتمويل بيت المـال وجيوب الخلفاء ؛ وهم مصدر الرزق للجنود التي كانت تحارب في جميع الجهات دون أن يزداد الفتح كثيراً بعـد الوليد بن عبد الملك ؛ وكان لهذه الضرائب أثرهـا في جعلهم يعملون جاهدين للتخلص من الاسرة الحاكمة .

وفي عهد هشام ارتفعت الضرائب ارتفاعاً عظيماً في كل الأمبراطورية ، وذلك نتيجة لجشع الخليفة ، فقد زادت الجزية على اهل قبرص ، وتضاعفت

في مصر ، وأصبحت جائرة في فـــارس وبلاد الترك ، ونقم الايرانيون من زارعين وتجـــار تلك الجزية التي جعلتهم مورد رزق لخزائن هشام والدولة العربية ، ولم يشعروا بأن الدولة اسلامية بل رأوها عربية لحماً ودماً .

وقد وجد هؤلاء الموالي دعاية قوية مؤثرة في دعوة الشيعة التي كانت تدعو سياسياً الى جعل الخلافة في ابناء علي ثم مـــا لبثت هذه الدعاية السياسية ان انقلبت دعوة دينية ، فهم ينتقدون الخلافة الوراثية لأنهـــا تصبح ملكية لا شورى بين الناس ، وأخذوا يقولون بظهور المهدي في آخر الزمـــان فيملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً ، ووجدت هذه الدعاية اذنـــاً صاغية وقلوباً مستمعة في نفوس كثيرين من الطبقات المحكومة من غـــير العرب ، ولا ريب في ان اولئك الموالي انما كانوا ابناء حضارات ودول ارقى بكثير من الحـــالة التي كان عليها العرب قبل الفتح او بعده . فقــــد كان العرب تلاميذ تلك الحضارات القديمة ، فعنها اخذوا فن الادارة والعمران والزراعـــة والصناعة والثقافة والفنون . ولهذا فقد كان هؤلاء الموالي الذين اعتنقوا الدين الاسلامي يرون انهم أكفاء من كل النواحي للأخذ بنصيب في ادارة البلاد طالما ان الدين لم يقصهم عن حقوقهم السياسية والاجتماعية . وقــــد وجـــد الخراسانيون والفارسيون منفذاً الى تحقيق مطالبهم السياسية تحت ستار التشيع ، فتشيعوا وساندوا هذا المعتنق الديني . وفارس كانت معقل المعارضة ضد الأمويين إذ أن في ايران ترعرعت حضارة فارس العريقة ، وهي الامبراطورية التي فقدت استقلالها السياسي والاقتصادي ، وأصبحت مستعمرة عربية حيث سكن فيها العرب كطبقة ارستقراطية حاكمة ، ولذلك فإن الايرانيين عضـــدوا المذهب الشيعي حتى يتم القضـــــاء على النظام الشعوبي السائد الذي جعل العرب الطبقة الحاكمة .

وبرهن الخوارج على انهم حزب مناضل له قوته ، وقـد كال الضربات للأمويين، فقد هددوا العراق أيام معاوية؛ وأرسل اليهم أهل الكوفة والبصرة لقتالهم ، وكان المهلب يقاتلهم في خلافة ابن الزبير حين كان مصعب بن الزبير أميراً على العراق ، ثم من بعـد ذلك حاربهم المهلب حين آلت الخلافـة لعبد الملك . ونجح المهلب نجاحاً كبيراً في إضعاف شوكة الخوارج ، فأبعدهم عن العراق يساعده في ذلك أبناؤه يزيد والمغيرة والمفضل ، وكانوا نعم القواد في وقائعهم مع الخوارج كما ساعدهم الحجاج في ارسال المدد والمؤن من العراق. ولم يستطع الامويون ان يستأصلوا الخوارج، وقد هادنوهم ايام عمر بن عبد العزيز ثم مـا لبثوا أن عاودوا نشاطهم الحربي ضد الامويين وسببوا للدولة خسائر فادحة في الارواح والأموال، وكان الخوارج بمثابة الحزب الجمهوري في الدولة، فهم يؤمنون بصحة خلافة ابي بكر وعمر دون ريب ويقولون بحسن وصحة خلافة عثمان في سنيه الست الاولى . ويعترفون بخلافة علي الى ان قبل التحكيم وعندها سقط حقه في الخلافة . ويرى الخوارج ان الخلافـة حق لكل عربي حر . ولا يصح للخليفة ان ينزل عن منصبه طالما انه اختير لذلك ، فـاذا حاد الخليفة عن الكتاب والسنة وسيرة الشيخين حل لهم عزله او دمه . فلما اتسعت رقعه الدولة الاسلامية ودخل الاسلام عدد كبير من غير العرب عدلوا في دستورهم فقالوا بأن لكل مسلم مهما كانت جنسيته الحق في منصب الخلافة، وبدلاً من حرية الرجل ألزموا ان يكون عادلاً ، فصار اساس الحكم الاسلام، والاشتراك مع الخوارج في مـذهبهم السياسي . وتشعب الخوارج انفسهم الى اقسام متعـددة ، وكانوا بالجملة مصدر قلق كبير للدولة الاموية فأهرقوا ميزانيتها وأنهكوا قوتها الحربية .

كان الشيعة يدعون للعلويين ، ويقولون بأنهم أحق الناس بالخلافة ، وقد

لقي عدد من العلويين حتفهم بسبب ثورتهم ضد الأمويين ، فالحسين بن علي بن أبي طالب قتل في خلافة يزيد بن معاوية ، وقتل معه ثمانون من اهل بيته كما سبي النساء والأطفال ، وبذلك ضعف هذا البيت حتى ان المختار بن عبيد الثقفي لما استولى على العراق لم يجد رجلا مكتملا من العلويين ليبايعه بالخلافة ويترك له العراق . وثار زين العابدين بن علي بن الحسين على هشام ، وحاول ان يستولي على الكوفة ، ولكنه فشل اذ قتله هشام ، وثار ابنه يحيى ايضاً ولكنه قتل ، وبمقتله ضعف البيت العلوي ضعفاً لم يجعل من الممكن ان يتولى قيادة ثورة منظمة على الأمويين .

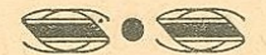
وهنا ظهر حزب جديد في الوجود هو حزب العباسيين الذين ينتمون الى العباس بن عبد المطلب ، ولضعف البيت العلوي استطاعوا ان يضموا أنفسهم الى العلويين ويطلبوا الخلافة باسم الهاشميين وهو البيت النبوي ، ولم ير الشيعة حرجاً في ذلك فقبل زعماؤهم ان يكون الكفاح موحداً ومطالباً بالخلافة للبيت الهاشمي ، وكان سبب هذا الكفاح الموحد يرجع الى وفاة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية (وهو ابن علي بن ابي طالب من غير فاطمة) سنة ٧١٦ م ، دون ان يخلف وراءه من يرث زعامة الشيعة ، وقد تنازل ابو هاشم عن حقوقه في الزعامة لابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وقد قبل الشيعة هذا التنازل وقبلوا محمد بن علي زعيماً لهم ودانوا له بالولاء ، ثم دانوا من بعده لابنه ابراهيم بن محمد ولكن الدعوة كانت سرية لا يعلم بها إلا زعماء الشيعة اذ لاحظ الشيعة أن الامويين اذا عرفوا قائد الشيعة لا يمهلوه بل كانوا يهجمون عليه ويقتلونه .

والشيعة هم الذين قوضوا دولة بنى امية آخر الأمر ، فقد كان حزبهم منظماً تنظيماً دقيقاً وكان بمثابة المنظمة السرية لها رؤساؤها في الأقاليم ،

وأموالها التي تجمع من أعضائها ، ولم يعرف الامويون زعيم هـذا الحزب حتى وقع خطـاب من ابراهيم بن محمد لأبي مسلم الخراساني ، فأمر مروان بالقبض على ابراهيم وكان بالحميمة من اعمال الشام على طريق الحـاج ، فقبض على ابراهيم ، وأحضر الى مروان ، فأمر بحبسه ثم قتله .

وبموت ابراهيم انقسم الشيعة على أنفسهم : فجماعة على رأسهـا ابو سلمة الخلال . كانوا يريدون الخلافة لابناء علي وقد كاتبهم بذلك ابو سلمة ، ولكنهم لم يكونوا متأكدين من نجاح الحركة التي كان يقودها الخراسانيون ، فرفضوا وبايعت الطائفة الثانية حسب وصاة ابراهيم لأخيـه ابي العباس الذي أصبح رأس الشيعة بعد ذلك ووافقهم ابو سلمة على هذا الاختيار وان كان ابو العباس قد أسرّها لأبي سلمة وشعر بأنه لا يمكن الوثوق به طالمـا كان هواه مع العلويين ، ولكنه كان يتحين الفرص للتخلص منه .

كل هذه الأسباب مجتمعة تضافرت على استئصال دولة بني أميـة آخر الأمر ، ولم يكن من الممكن أن تقوى الدولة على هذه الضربات التي استفحل خطرها آخر الأمر ، وأخيراً قضت على الامويين .





١٨

إنهيار الأمويين في المشرق

اعتلى مروان بن محمد الخلافة والامبراطورية الاسلامية مشتعلة بالنيران من كل مكان معترضة على قيام الدولة الأموية وعلى خلافة مروان ، فالخوارج كانوا يحاربونه في العراق وفي الحجاز . والأمويون يكيدون له في الشام ، واليمنيون يثيرون عليه الفتن في حمص وفي غيرها من بلاد الدولة الاسلامية . وكان مروان يقضي وقتاً عصيباً في سبيل السيطرة على الموقف قبل ان تلتهمه النار المشتعلة ، وقد رأينا كيف نجح في اطفاء كل هذه الثورات بهمة وجلد حتى سمي لصبره بمروان الحمار .

غير أن الطامة الكبرى، والفأس التي هوت فحطمت العرش الاموي كانت تزداد قوة ومنعة كلما انشغل مروان بهذه الثورات . ففي خراسان معقل الشيعة ، وقاعدة الملك الساساني كانت جنود الشيعة تتجمع شيئاً فشيئاً ،

وفي الكوفة منبت الشيعة الروحي كانت الدعايات تبث بانتظام لانهاء حكم الامويين .

حاول نصر بن سيار ان يقمع فتنة الشيعة بخراسان وكان والي مروان عليها ؛ وطلب الجنود من مروان حتى يقطع دابر الثورة ، ولكن مروان كان مشغولاً بتثبيت خلافته في الشام ، وطرد الخوارج ، فلم يستطع ان يمد عامله بجندي واحد . وكانت خراسان من البلاد التي نزلها العرب ، فقد كان فيها اليمنيون ، والمضريون وفيها ربيعة ، وكان هوى اليمنيين مع الشيعة في هذا الوقت ، وهوى المضريين مع الامويين ، وأما ربيعة فقد كانت خارجية الهوى . وكان نصر مضريا فهو يقرب المضريين ، ويبتعد عنه اليمنيون ، وكان لذلك هو رئيس المضريين ، وتزعم اليمنيين جديع بن شبيب الكرماني، ثم ما لبث النضال ان بدأ بين الطائفتين ، وانهزم نصر وأصحابه ، وتغلبت اليمنية ، وحطمت ديار المضرية في خراسان .

التف الخراسانيون حول آل هاشم وكان غرضهم من ذلك ان يرتفع شأنهم سياسياً واجتماعياً في الدولة الاسلامية ، والقضاء على الارستقراطية الشعوبية العربية التي أقامها بنو امية وجعلوا العرب وحدهم حكاماً على البلاد ، وظهر من الخراسانيين فتى بدا عليه النبوغ اتصل بإبراهيم بن محمد زعيم الشيعة الذي سجنه مروان،وكان ذلك الفتى هو ابو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني، واختاره ابراهيم قائداً لجند خراسان ومن والاه من اليمنية ، كما امره بالقضاء على كل مضري يحاول الاعتراض على الثورة . وفي رمضان سنة ١٢٩ هـ رفع أبو مسلم الراية السوداء التي ارسلها اليه الامام ابراهيم وخرج الى قرية سفيذنج ينتظر قدوم الشيعة اليه من جميع جهات خراسان حتى التف حوله عدد كبير من الخراسانيين ، ودارت المناوشات بين أبي مسلم ونصر وانتصر الشيعة في

اولى هذه المناوشات ، وحاول نصر بن سيار ان يهادن اليمنيين وبني ربيعة حتى يتفرغ لقتال الخراسانيين ، ولكنه لم ينجح في ذلك ، وكان ابو مسلم يرسل الجنود للاستيلاء على قرى ومدن خراسان الواحدة تلو الاخرى،ونصر لا يقدر على إيقافه . ثم زحف ابو سليم الى مرو بمساعدة الكرماني،ودخلها ، وهرب منها نصر تاركاً وراءه أعوانه الذين قتلهم ابو مسلم ، وبذلك سقطت خراسان في يد ابي مسلم ، وتم ذلك حين لقي نصر حتفه أثناء هربه . وقام قحطبة - من قواد ابي مسلم - بالاستيلاء على الري كما ضم حسن بن قحطبة همذان ، وفتح نهاوند ثم الموصل ، ثم سار الى الكوفة وهزم واليها ابن هبيرة من قبل مروان ، ودخل المدينة حيث بايعه أهلها ، ثم تتبع ابن هبيرة الذي لجأ الى واسط ، ومكث هناك متحصناً حتى وفاة مروان بن محمد في ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ ، فطلب الصلح ، فأعطى اماناً مكتوباً وقد امضاه السفاح يؤمنه ومن معه حتى اذا سلم اليهم قتله السفاح غدراً .

بينما كان نصر بن سيار وابن هبيرة يدافعان بهمة عن خراسان والعراق كان مروان منهمكاً في تثبيت دعائم خلافته في الشام والحجاز ، فلما انتهى من تلك الفتن التقى بهذه الطامة الكبرى .

وفي جمادي الاول سنة ١٣٢ هـ اتى مروان بجيوشه الى الموصل فأرسل ابو العباس الخليفة العباسي الذي بويع له آنذاك عمه عبد الله بن علي لمنازلة مروان . وفي احد روافد الدجلة التقى الجمعان ، وانهزم مروان في جمادي الثانية من نفس السنة ؛ وتقهقر الى حران ، فقنسرين فحمص ، فدمشق ، وعبد الله يتبعه للقضاء عليه ، واستمر مروان في تقهقره حتى اتى الفسطاط بمصر ، ثم لجأ الى قرية بوصير المصرية . وهناك لحقه احد قواد عبدالله وهو صالح ابن علي واستطاع ان يقتل مروان في ٣ ذي الحجة سنة ١٣٢هـ وكانت تلك نهاية الامويين بالمشرق .



فهرس

